الأمن والإيمان في الإسلام

قراءة فى ملف مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام

رجائى عطية

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

رقم الايداع ١٦٤١١ / ٢٠٠٩

المكتب المصرى الحديث
www. almaktabalmasry. com

القاهـــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللـــواء ت: ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية : ٧ شارع نوبـــار المنشيـــة ت: ٤٨٤٦٦٠٢

تقديـــم

هذه جهود بذلها علماء صادقون، دارت حول أمن وأمان المجتمع فى الإسلام، أضفنا فقط ما رأيناه لازماً لاكتمال الصورة، بياناً لحق وحقيقة الإسلام الذى جعله الله تبارك وتعالى ديناً وهداية وأمناً وسلاماً للإنسانية إلى يوم الدين.

رجائى عطية

قراءة فى ملف

مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام

حالت ظروف وأعباء كثيرة، دون أن أتفرغ ــ على ما يرضينى ويتفق مع جلال المهمة - لدراسة الملف الضافى الضخم المتنوع الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مارس ٢٠٠٨)، وأشرف على إعداده وتقديمه رئيسه العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف العضو المؤثر بمجمع البحوث الإسلامية. الملف الذى بلغ (١٢٧٠) صفحة دارت مقوماته ومحاوره الأربعة حول مناهج وقضايا وخطوط واهتمامات وعناصر وتوجهات ومرام وغايات " مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام ".. دارت البحوث وقدمت الدراسات فى المؤتمر الكبير الذى عقد فى مارس ومثلته وفود ضمت شتى علماء العالم الإسلامى، من كافة الدول العربية والإسلامية، ومنها الدول الأفريقية: إريتريا، وجنوب أفريــقيا، وزيمبابوى، والسنغال، ونيجيريا، والكونغو برازافيل، والكاميرون، وإثيوبيا، ومــالى، وسيراليون، وموزمبيق، وغينيا كوناكرى، ورواندا..ومن الدول الآسيوية: أذربيجان، وأندونيسيا، وبنجلاديش،وسنغافورا،وماليزيا،والمالديف، والهند، وكازاخستان، وأوزبكستان، وإيــران، وكادجيستان، وسيريلانكا، ونيبال، واليابان، وتيمور الشرقية، والصين..ومن الدول الأوروبية: إيطاليا، وتركــيا، والبوسنة والهرسك، وسويسرا، وفرنسا، واليونان، والنرويج، وقيرقيزيا، وصربيا، وبلغاريا، والدنمارك، وجمهورية الجبل الأسود، وكرواتيا، والمجر، وسلوفينيا، وإيرلندا، ومقدونيا، ورومانيا، وبلجيكا، وألبانيا(ولا أعرف سبب غياب ألمانيا رغم التعداد الهائل للمسلمين وعلمائهم فيها ؟!)..ومن الأمريكتين: أمريكا، وكندا، والأرجنتين، والمكسيك، وأستراليا. وحضر المؤتمر من المنظمات الإسلامية

العالمية: رابطة الجامعات الإسلامية، والمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة، ومنظمة الإسيسكو، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، والمركز الدولى للوسطية، وجامعة الدول العربية، وجمعية الدعوة الإسلامية، ومجمع الفقه الإسلامى.

تفصح كلمة مصر من البداية عن أهداف وغايات، تبلورت فى :

(١) التصدى لمظاهر التطرف والتعصب والإرهاب التى أساءت وتسىء للإسلام وتشوه صورته على خلاف حقيقته.

(٢) نشر قيم التسامح والتراحم والتكافل فى المجتمع بعامة.

(٣) الارتقاء بالعلم والتعليم واللحاق بركب العصر ومواكبة متغيراته المتسارعة، وترسيخ القيم الدافعة للمجتمع .

(٤) تمكين العقل من أداء دوره الفاعل فى التغيير والتطوير فى المجتمعات الإسلامية .

(٥) العمل على تحقيق التكافل وتعزيز العمل المشترك بين بلاد العالم الإسلامى.

* * *

تستطيع أن ترى من البداية " معنى الأمان " فى الإسلام حاضراً نابضاً لافتاً فى كل ما أوردته المقدمة الضافية لفضيلة الأستاذ الجليل الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف، رئيس مجمع بحوثه الذى يؤدى مهام ضخمة فى صمت وقور.

تطوف مقدمة الإمام الأكبر بآى الذكر الحكيم لتستخرج منها كيف أن هذا "الأمن" قبلة وغاية ومظلة أرادها الله سبحانه وتعالى أماناً وسلاماً وسكينة للمجتمع. فى براعة يبدأ الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية التى تصدر مشاهد التهرب يوم القيامة لفقدان الأمن والأمان تبعاً لسوء الصنيع فى الحياة الدنيا.."

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)(عبس ٣٤ ــ ٣٧).

فى لفتة موفقة ينتقل التقديم من فرار الخوف، إلى أمـــان الاطمئنان، بادئة بآى الذكر الحكيم التى نبهت إلى أمان أول بيت وضع للناس ببكة مباركا حين قالت:

" إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا " (آل عمران: ٩٦، ٩٧)..

هذا الأمان هو هو نداء إبراهيم عليه السلام إلى ربه إذ تضرع إليه كما يروى القرآن:

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـــذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ " (البقرة: ١٢٦).

والأمان المتضرع به هنا إلى الله تعالى هو أمان البلد بعامة، وتعبير عن أثر ومتانة هذه النعمة - " نعمة الأمان " - التى يتضح أنها على رأس الإنعامات الإلهية من الحق سبحانه وتعالى على عباده.

مع تعدد البشارات التى ساقها القرآن المجيد فى واقعة بـــدر، نرى "نعمة الأمان" حاضرة حـــضوراً جليـــاً فـــى باقـــة هـــذه البـــشارات والإنعامـــات الإلهية..فيخاطب القرآن أصحاب بدر بقوله: " إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَـــةً مِّنْـــهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" (الأنفال: ١١)

وتروى كتب السيرة أن النعاس قد أعطى مهلة بالفعل للمؤمنين قبل بداية المنازلة ليكون أماناً وتسكيناً لهم. لا ينى القرآن الكريم - فيما رواه فضيلة الإمام الأكبر - عن بيان أن " نعمة الأمان " على رأس النعم التى أعطاها الله للمؤمنين الصادقين، فيقول عز من قائل " مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم

مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (النمل: ٨٩، ٩٠)

هذه النعمة التى اختارها يوسف عليه السلام لأبيه وأخيه عندما استقبلهم على مشارف مصر، فقال لهم فيما رواه القرآن الحكيم: " فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ " (يوسف: ٩٩)..ولذلك نرى هذه النعمة حاضرة جلية من بين النعم التى أنعم الله بها على المؤمنين الصادقين: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (النور: ٥٥).

نعمة الأمان هى نعمة النعم، وليدة العدل، ودستورها العقل والصلاح والاستقامة والبناء والبر والصدق والتقوى والتراحم والاطمئنان والتسامح والمساواة.

* * *

كان جميلا أن أرى كلمة قداسة البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية بعد كلمة فضيلة الإمام الأكبر. حديثه وسط هذا التجمع الإسلامى الكبير شهادة على علو قيم التسامح فى الإسلام، واحترامه للأديان. فى ذكاء وصدق معبرين يبدأ البابا كلمته بقوله:

" بسم الإله الواحد الذى نعبده جميعاً ". نعم. إن الله واحد لا يتعدد، يعبده الجميع اياً كانت مناظيرهم إليه، فهو الواحد بذاته لا يتغير ولا يتبدل.

ثم لا يفوت قداسة البابا أن يستشهد على أمان الإسلام بالقرآن، فيختار آية: " رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا " (إبراهيم: ٣٥)، ليعقب بقوله: - وكأن السماء تستمع إلى هذا الأمر فتقول لجميع الشعوب من جهة بلدها: " ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ " (الحجر: ٤٦).

أعجبتنى أيضا " الأجندة " التى تقدم بها البابا فى تفريعات متنوعة رشيدة تصب جميعها فى تحقيق المراد من الأمن المجتمعى فى الإسلام. نطاق الأمن لا يجوز أن ينحصر فى الذات، وإنما يجب أن يمتد إلـــى الغير. الواجب ليس فقط ولجب مداركة لما وقع وإنما اتقاء لما قد يقع.. هو واجب الجميع: الدولة والقانون والقضاء ورجال الدين والتوعية والأسرة والناس. ينحر فى هذا الأمان تفشى أو انتشار الجرائم، نضوب الأمن الغذائى، تواضع أمن البيئة، تفشى الجوع والبطالة، ازدياد حدة الفقر، تعديات الخارج على التراب الوطنى، قصور الالتفات إلى المستضعفين والأطفال والمهمشين والمشردين. ضحايا الجنوح والفساد والإدمان. واقع الأمر أن الدوائر المؤثرة فى أمن وأمان المجتمع - بالإيجاب أو بالسلب.تتنوع بتنوع أنشطة وميادين وروافد وأدوات ووسائل الحياة والسلوك.فهل أدركت "محاور" الملتقى هذه الغايات؟

تنوعت " المحاور " التى دار حولها المؤتمر فى أربـــعة محاور رئيسية: المقوم الإيمانى، والعدل الاجتماعى، والحقوق الاجتماعية، ودور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى.

تضمن كل محور من هذه المحاور الأربعة بحوثا ودراسات ضافية متنوعة لكبار علماء الإسلام، أرجو أن ألتقى بالقارئ الكريم معها أو مع بعضها فى هذا الحديث.

المحور الأول

المقوم الإيمانى

فى تحقيق الأمن المجتمعى فى الإسلام

حول " المقوم الإيمانى " للأمن المجتمعى فى الإسلام، دار المحور الأول من محاور الدراسات التى شملها مجلد مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام، وشغل من المجلد الضخم (٤٣٦) ورقة، ضمت بحوثاً ودراسات لكبار علماء الإسلام منهم: الأستاذ الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية، والأستاذ عصام أحمد بشير (المركز العالمى للوسطية)، والأستاذ الدكتور محمد عمارة، والأستاذ الدكتور طه أبوكريشة، وشيوخ وعلماء من الجزائر وفلسطين ولبنان والإمارات والكويت وماليزيا، ومن أستراليا والمكسيك واليونان والبرازيل والإكوادور وغيرها، ودارت دراساتهم حول دور الإيمان فى تحقيق السلام المجتمعى، والمقومات الإيمانية للأمن المجتمعى فى الإسلام، والقيم الأخلاقية والأبعاد الروحية والمادية للأمن، وأثر الإيمان فى السلوك، ومنهج الإسلام فى تحقيق الأمن، والتعددية الدينية والعرقية والمذهبية والقومية، والتسامح فى ظل التعددية.

تلفت هذه الدراسات إلى أصول المقومات الحافظة للأمن المجتمعى فى الإسلام، فالإنسانية - فيما أرشد القرآن الحكيم - تنتمى إلى أسرة بل ونفس واحدة.."يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً" (النساء:١)..والتعاون على البر والتقوى أصل من الأصول الإسلامية.. " وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة: ٢)..هذه الرؤية التى أفاضت فيها دراسة الدكتور على جمعة

أثرت وتـؤثر إيجاباً بلا شك على مفهوم الأمن والسلام المجتمعى..ترعاها باقة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية..فالسلام اسم من أسماء الله تعالى، وجعل سبحانه وتعالى إفشاء السلام غاية.وفى الحديث:" والذى نفسـى بيـده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم "..وفى حديث برواية عمار بن ياسـر: " ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم "،ويقول عليه الصلاة والسلام لمن سأله عن خير الإسلام:" تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف".

ودور الإيمان فى تحقيق السلام الاجتماعى، هو موضوع دراسة الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى، يلفت إلى الفرق بين " الإيمان بالله "ويعنى التصديق والإثبات والاعتراف بوجـــوده سبحانـــه، وبين "الإيمان له " ويعنى القبول عنه والطاعة له، وهذا يعنى أن لفظ " الإسلام" يأتى مساوياً للفظ الإيمان بالله..هذا الإيمان هو كنف الطاعات التى هى كلها ثمرة الإيمان، ومن هذه الثمرات للإسلام أن يسلم قلب المسلم لله، وأن يسلم المسلمون من لسانه ويده، وأن يهجر السوء. هذا الإسلام إيمان وعمل.. الإيمان يمثل العقيدة والأصول، والعمل يمثل الشريعة والفروع المعدودة امتداداً للإيمان والعقيدة..هذا الإيمان هو الذى يحفظ للإنسان سلامه الروحى وأمنه مع نفسه ومع الناس، وهو أيضا قوة الدفع للعمل لبناء الذات ونماء المجتمع وصنع الحضارة، وهو كذلك مصدر السلام والأمان والاطمئنان.

حول هذه المقومات الإيمانية، دارت أيضاً دراسة الأستاذ الدكتور عصام أحمد البشير، يبدؤها ببيان "الأمـــن" معنىً ومفهوماً، ويثنى بمكانة الأمن فى الإسلام: (١) هـــو حق إلهـــى للإنســـان به صلاح الدنيا والدين (٢) والحفاظ عليه من الضرورات الخمس التى يحتاجها كل فرد: على حياته، ونفسه، ودينه، وعرضه، وماله. والشريعة كلها مبنية على الأمن. فالتوحيد نفسه أمان، وبعض أركان الدين موصولة بالأمن كالصلاة والحج، وبهذا الأمان تجرى

الدعوة نفسها مشمولة بالتبليغ وبالأمان الفكرى وإجارة الناس حتى المشركين.يقول تبـــارك وتعالى:"وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ" (التوبة: ٦).من هذه المنظومة يتجلى أن الأمن هو عافية بنيان المجتمع، وهدف التربية الإسلامية، وصمام أمن المجتمع، وغايته نحو السلام.

يتوقف الدكتور التويجرى ليورد معالم عشرة للأمن الفكرى فى الإسلام، ووسائل حمايته، مقدما مبدأ الوسطية والاعتدال، ومنوّهاً بوجوب دراسة واقع الشباب وحل مشكلاته، ولزوم اهتمام مؤسسات الدولة والمجتمع بهذه التربية.

وحول الإيمان والعقل والسلوك، كتب الأستاذ الدكتور طـــه أبوكريشة، فأورد كثيرا منالنصوص القرآنية والنبوية التى تؤكد علاقة الإيمان والعقل والسلوك بأمن المجتمع.تثبت هذه الحقيقة أسس ومقاصد النظام المجتمعى فى الإسلام..فى الأركان، وفى الفرائض، وفى العبادات، وفى الكسب والنشاط، وفى المعاملات، وفى رعاية الوالدين والأسرة والأولاد، وذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وفى مسالك المعاملات التى يوصى بها القرآن الكريم: " وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً" (البقرة:٨٣)، "وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (الإسراء: ٥٣)، وقوله تعالى: "لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا" (النساء: ١٤٨).. هذه المنظومة الإسلامية، تمقت وتنهى عن اللمز وعن التـــناجى بالإثم والعدوان والمعصيات، وعن الخيلاء والفخر، وتتنادى بوصية الرحمن تبارك وتعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا" (الفرقان: ٦٣).

تخلص دراسة الدكتور طه أبوكريشة إلى أن التوجيهات القرآنية فى سائر الجوانب العقلية تتم من خلال حوار وخطاب عقلى، يسلم فيه العقل بما يدور حوله الحوار، ثم ليكون من وراء التسليم - الالتزام بالسلوك المحمود الذى يؤمن المجتمع من الخلل، ويحوطه بسياج من الرعاية الروحية والعقلية تكفل له تحقيق أمان المجتمع فى واحة الإسلام الذى قدم الهداية والسلام للعالمين.

اختار الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو محمد - رئيس المؤسسة الاسترالية للثقافة الإسلامية فى استراليا، أن يكتب عن " منهج الإسلام فى تحقيق الأمن - الرؤية والأبعاد ". - استغرقت دراسته الطويلة ٦٢ ورقة، يستهلها بالحديث النبوى الذى رواه ابن ماجه:" من أصبح منكم معافـى فى جسده، آمناً فى سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا ". بهذا الاستهلال تقدم الدراسة لأهمية تأمين الإنسان فى جانبيه المـادى والمعنوى. المادى المتعلق بتوفير الماديات الضرورية كتأمين الغذاء والكساء والمأوى، والجانب المعنوى المتعلق بالحضانة والتربية والتعليم والثقافة والإعلام والصحة البدنية والنفسية التى قوامهـا طمأنينة النفس.

الأمن الذى تنصرف إليه الدراسة، بهذه المقومات، هو أمن الإنسان على نفسه وذويه، وما ملكت يداه، وأمنه على عقله وفكره وحريته، وكل ما يشكل ركنا من أركان وجوده المادى والمعنوى. ثم هو أمن المجتمع شاملا الأغيار إلى جوار أمن وأمان النفس.

يقسم الدكتور إبراهيم أبومحمد بحثه فى قسمين: **الأول** الأمن المادى المعنوى.. ميادينه ومقوماته. و**الثانى** دور العقيدة والشريعة فى تحقيق الأمن. يركز القسم الأول على ميادين الأمن: الاجتماعى والاقتصادى والقومى (الداخلى والخارجى) والسياسى، لينطلق إلى التعريف بمقوماته وأصوله فى النواحى المادية، وفى النواحى العقلية والنفسية عبر الحضانة والتربية والتعليم والثقافة والإعلام، وفى إطار تفعيل عقيدة التوحيد وتحقيق العدل وحماية الحريات والمساواة حيث نرى كيف أن وسائل تحقيق الأمن فى ظل المنظومة الإسلامية تتعدد بتعدد أنشطـة الحياة.

وفى إطار دور العقيدة والشريعة فى تحقيق الأمن المجتمعى، تتناول دراسة الدكتور إبراهيم أبومحمد - دور العقيدة، وكيف يجب صياغة معانى العقيدة ومنهج الإسلام لتحقيق هذه الغاية فى إطار عقيدة الإيمان القائمة على التوحيد

والاستغراق باعتباره موقفا كليا فى مسرح الحياة الإنسانية، ويجب أن تدار آلياته فى إطار " القدوة " فى الممارسة والتطبيق، مع الالتفات إلى أهمية الوقاية من الجنوح بدلاً من انتظار تداركه أو معالجته، والاهتمام بتفعيل دور العقيدة، وتدارك أثر الخوف فى تعطيل القدرات الإنسانية التى يرعاها الإسلام نحو الكمال والجمال اللذين بهما يتحقق أمان المجتمع. لن تكتمل أجنحة الأمان لمجرد أمن الإنسان فى الدنيا، وإنما توجب الرؤية الإسلامية الصحيحة ألاّ ينفصل الإنسان بدنياه الفانية عن آخرته الباقية التى تمثل الحافز الذى يدفع ضمير المؤمن نحو طلب الكمال والجمال والسلام. هذه الغايات نحو السلام المجتمعى يطلقها التحرر من هم الرزق، ومن هم خوف الضر والحرص على المنفعة.

من كلمات العلاّمة سعيد النورسى عن الربط بين ضياء القلب ونور العقل فى معرفة الحقيقة، تورد الدراسة: "ضياء القلب هـو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل، والشبهات فى هذا، والتعصب الذميم فى ذلك ".

ولذلك فنحن نحتاج إلى التركيز الشديد على الربط بين الضياءين أو بين النورين، ضياء القلب ونور العقل، حتى تخرج أمتـنا من دائرة العجز والتخلف والتبعية وتعود إلى دينها عودًا حميدًا، وذلك هو الأمل الذى ترنو إليه عيون كل الأمناء من أبناء الإسلام فى كل عصر ومصر.

* * *

الأبعاد الروحية والمادية
للأمن المجتمعى فى الإسلام

اختار الأستاذ الجليل الدكتور محمد عمارة، أن يكتب فى إطار المحور الأول (المقوم الإيمانى) عن الأبعاد الروحية والمادية للأمن المجتمعى فى الإسلام، بينما كتب السيد / بشار شريف دامار نائب مفتى الأقلية الإسلامية فى اليونان - كتب عن الأمن الروحى والمادى فى الإسلام.

يبدأ الدكتور محمد عمارة دراسته بتعريف أن "الأمن" هو المقابل المضاد للخوف والفزع.. فهو الطمأنينة والاطمئنان إلى عـدم توقع المكروه، أما "الإيمان" فهو اطمئنان القلب بالانتماء إلى الخالـق عز وجل.. الرازق والمنعم والراعى والحافظ..فالاطمئنان بالمعية الإلهية يعصم من أى خوف أو فزع أو اغتراب فى الدنيا والآخرة، ومن ثم كان الإيمان هو أفضل السبل لتحقيق أمن الإنسان وأمن علاقاته بالناس..عن الوعد الإلهى بهذا الأمن، يستشهد الدكتور عمارة بآيات من سورة النور والنحل والزمر. يقول الحق جلا وعلا فى سورة النور" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (النور: ٥٥).. وفى الحديث النبوى الشريف: " لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه "..."المؤمن من أمنه الناس علـى دمائهـم وأموالهم ".

اختار الدكتور عمارة أن يستشهد من سورة النور بآية تحمل وعداً وبشارة للمؤمنين بتبديل المؤمنين من " بعد خوفهم أمنا " لقاء عبادتهم الخالصة من أى شرك، وتعدهم بأن الله تعالى سيمكن لدينهم الذى ارتضى لهم بهذا الإيمان إلى جوار الأمان، وبأنه عز وجل ليستخلفنهم فى الأرض لقاء إيمانهم وعملهم

الصالحات. الإيمان إذن هو مصدر أمان المؤمن مع نفسه ولمن يتعامل معهم، ومناط ومرجعية كل شيء طيب يأمله الإنسان فى آخرته وفى دنياه، أما التمكين الذى وعدت به الآيات البينات، فليس للتيه والتجبر، وإنما لغاية حميدة تضع أعينها على كفالة الأمن المجتمعى فى واحة الإسلام.

فى محاجة ابراهيم عليه السلام مقدمه، يتوقف الدكتور عمارة عند آيات من سورة الأنعام، يقول فيها الله تبارك وتعالى: "وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ *وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (الأنعام: ٨٠ - ٨٢)..فيستخلص الأستاذ عمارة من معانيها أن الأمن هو ثمرة الإيمان، بينما الخوف والحيرة والقلق والضلال هى ثمرات الشرك الذى يفتقد فيه المشرك - معية الله والأنس به والانتماء إليه والاحتماء بظلال حضرته القدسية..هذه المعانى التى تتجلى فى قول الحق جلت حكمته:

" فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْـــنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ".(الأنعام: ٨١، ٨٢).

فى الحديث النبوى الشريف: "لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها "، وضرب القرآن الحكيم مثلا للأمن والطمأنينة للجماعة والمجتمع، فى قوله عز من قائل: "وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ" (النحل:١١٢).

هذا الإيمان هو القوة الروحية التى تخرج الإنسان من الخوف إذا ألمّ به أو حملت النوازل نذره.. هذه القوة الروحية التى منبعها الإيمان هى التى تؤمن الإنسان من الخوف ومن الجوع ومن نوازل النقص فى الأموال والثمرات وما

يصيب الأنفس، فيقول الحق تبارك وتعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّـن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُهْتَدُونَ " (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧)

هذا الإيمان بصدق الوعد الإلهى هو الذى حدا بأم موسى إلى إلقائه فى اليم واثقة مطمئنة بصدق الوعد الإلهى، وكذلك كانت ثقة واطمئنان وأمان موسى عليه السلام فيما قابل به شطحات الكافرين..وثقة وأمان واطمئنان المصطفى عليه الصلاة والسلام حين وقف الكفار الملاحقون له على مدخل الغار الذى يختبئ فيه وصاحبه الصديق من بطشهم..كان إيمانه - صلى الله عليه وسلم - الذى واسى به صاحبه، مستمدًا من الإيمان بالمعية الإلهية التى تزيح إلى خوف أو فزع.. بهذا الإيمان طفق عليه الصلاة والسلام يفرخ روع الصديق: " إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ".. (التوبة: ٤٠)

تستقصى الدراسة كثيرا من المواقف الإيمانية الجالبة للأمن والأمان..فى غزوة الأحزاب عندما بلغت القلوب الحناجر، وفى استدعاء الالتفات - فى سورة قريش - إلى الأمان الذى أضفته وتضيفه المعية الإلهية " فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّـنْ خَوْفٍ " (قريش: ٣، ٤)..فهو سبحانه الذى يمتن على المؤمنين بالحرم الآمن الذى لا يناله من يتخطفهم الموت من حولهم.. "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ " (البقرة: ١٢٥).. وفى مزاوجة متقابلة بين ما يمنحه الإيمان، وبين ما يفعله الخوف، تقول الآية الكريمة: " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُـــونَ وَبِنِعْمَـــةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ " (العنكبوت: ٦٧).

فالعلاقة كالعروة الوثقى بين الأمن الروحى والمادى - على المعاش والمعاد، وبين الإيمان والانتماء لواهب هذه النعم وإفراده بالألوهية والربوبية والعبودية والعبادة. هذا الإيمان - وثمرته الأمن الفردى والمجتمعى - هُما جماع أداء الأمانة التى حملها الإنسان الذى استخلفه ربه سبحانه وتعالى لعمارة الأرض وفق شريعته الهادية إلى نور الإيمان وطمأنينة الإيمان.

هذه المنابع التى تصب - بالإيمان - فى أمان الفرد، تنعكس بالضرورة على أمان المجتمع الذى حرص الإسلام على بنائه وكفالة أمنه. وسيلته هو ذات الإنسان المؤمن الذى يقوم نسيجه على جناحين: " الأمن الروحى" الذى يتحقق بالانتماء الدينى والمعية الإلهية والأنس بالحضرة الربانية، "والأمن المادى" على المعاش. بهذا النسيج يكون المؤمن ركيزة ولبنة للأمن الروحى والمادى للمجتمع، يقيه بما يتحقق له من صعود إلى المعارج الإلهية - يقيه من سلبيات الواقع الاجتماعى العالمى، ومن توحشات الرأسمالية وسيطرة رأس المال على عباد الله، وإعطاء الظهر للفقر والفقراء، ويقيه من عوادم الانحصار والانكفاء على الذات الذى منه شاع الفقر والبطالة والعنوسة والعنف والفساد والعشوائيات وسرف الترف المستفز ! هذا الإيمان هو الذى ينشر أمانه فيبدل المجتمع بإيجابيات تحسر هذه السلبيات الطالحة، ويحقق من ثم للمجتمع سلامة الأسس التى تنبنى عليها حياته ويشيع الأمن والأمان فى جنباته.

ذات هذا الإيمان - فيما يورد البحث - هو الذى يمهد السبل للإصلاح الفكرى الذى يقى المجتمع غوائل العنف العشوائى، وسلبيات الجمود والتقليد، ومثالب الدروشة والبلاهة، وهو ما يستلزم علاجه - إعادة الثقافة الإسلامية إلى " وسطية التوازن والاعتدال " وما كانت عليه فى عصور الازدهار الحضارى ومشروعات التجديد الفكرى والدينى.

يتوقف البحث توقفاً له مغزاه، عند مقتطفات للحارث بن أسد المحاسبى (٧٨١ - ٨٥٧م) الذى جمع بين التصوف والفلسفة والسلفية، فيها تحدث الحارث عن العقل فقال إنه: "غريزة وضعها الله سبحانه فى أكثر خلقه..ونور

فى القلب كنور العين..يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول.والمعرفة عن العقل تكون. وهو صفة الروح..ولقد سمى العقل لبا، ولب كل شيء خالصه، وقال عز وجل: " إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ " (الزمر: ٩)

بالعقل - مع القلب - عرف الخلق ربهم تبارك وتعالى، وبتمام العقل المؤمن أفرد ربه عز وجل بالتوحيد، وجعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار..إليها يأوى كل محصول، وبها يستدل على ما أخبر به سبحانه وتعالى من علم الغيوب.. فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح والأفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو نرى هجرها فتمسك عن مكروهها.يضيف المحاسبى إلى ذلك أن الله تعالى قد استخلص من عباده " خالصة " من خلقه، فهمت عنه قوله بعقولها، فاتسع لها ما خفى عن الأبصار..

تعرض دراسة الدكتور عمارة لما قاله الإمام الغزالى عن علاقة العقل بالنقل والشرع، وإلى مؤاخاة الفيلسوف الطبيب الفقيه أبو الوليد بن رشد - مؤاخاته بين الحكمة والشريعة، وبين العقل والنقل، كما تعرض لما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية عن وجوب موافقة صريح العقول لصحيح المنقول حتى قال: " إن ما عرف بصريح المعقول لا يتصور أن يعارضه منقول صحيح قط ".!..وما قاله جمال الدين الأفغانى رائد اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث: " إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية، والقدح فى سيرتهم.. إن العقل مشـــرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان. " !..أما الشيخ الإمام محمد عبده، أبرز أعلام الإحياء والتجديد فى العصر الحديث، فقد أفاض فى ضرورة الإصلاح الفكرى، وإعادة الإخاء بين العقل والنقل فقال ممـــا قاله: " أن العقل هو جوهر إنسانية الإنسان.. وهو أفضل القوى الإنسانية على معرفة الحقيقة..ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كـــتاب مقدس،

على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلاّ من لا ثقة بعقله ولا بدينه !

والله تعالى يخاطب فى كتابه: " الفكر والعقل والعلم " بدون قيد ولا حد، ولكن العقل البشرى وحده ليس فى استطاعته - بمفرده - أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلاّ فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده، لهذا كان العقل محتاجا إلى معين مستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة. إن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله، وعلمه وقدرته، والتصديق بالرسالة..أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات..والذى علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه.

على أن من أهم ما تخلص إليه دراسة الدكتور عمارة من هذه الأسس، هو حضور " الإصلاح الاجتماعى " فى المنظومة الإسلامية.فالإسلام دين الجماعة، جمعت فلسفته وتشريعه بين المسئولية الفردية: " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ "..." كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ "..." وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى "..." مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ " - جمعت بين هذه المسئولية الفردية، وبين المسئولية الاجتماعية والمجتمعية..يتجلى ذلك فى عموم توجيه الخطاب القرآنى إلى الأمة والجماعة وإلى الناس كافة.

فى هذه الفلسفة التشريعية تزاملت وتساندت الفروض والتكاليف الفردية - العينية - مع الفروض والتكاليف الكفائية - الجماعية والاجتماعية المجتمعية، ولهذه الحكمة، كان الأمن فى الإسلام أمنا فرديا واجتماعيا ومجتمعيا، يجتمع فى واحته أمن الفرد وأمن المجتمع والناس، على أساس الأمن الدينى والروحى والفكرى، وأمان مقومات المعاش فى دنيا الإنسان.

والعدل فى واحة الإسلام، هو الركن الركين الذى به يتحقق التكافل الاجتماعى فى الإسلام. هذا التكافل الاجتماعى هو الذى يجعل الأمة جسدا واحدا، لأن منه وإليه التضامن والإعالة والرعاية، وهو مؤسس القاعدة الإسلامية الكلية، لقيام التوازن والموازنة والميزان بين الأفراد والطبقات والجماعات والأطراف، فى رعاية وتساند يكفلان أمن الفرد وأمن الجماعة والمجتمع والناس..ترى آليات تطبيق ذلك فى صندوق التنمية بالركاز، وفى صندوق الزكاة العامة، وفى الوقف.ومن ذلك كله وغيره صار للمجتمع الإسلامى قواعد وأسس وتطبيقات وتاريخ فى فلسفة الأمن الاجتماعى الذى رعى الإسلام كفالته وكفالة حاضره موصولة فى منظومته وفى واحة مجتمعه وأمانه وطمأنينته المشعة فى محيطه وعلى كل الموجودين فيه.

* * *

وفى دراسة السيد / بشار شريف دامار - نائب مفتى الأقلية الإسلامية باليونان، عن الأمن الروحى والمادى فى الإسلام، يورد أن مصطلح " الأمن " ورد فى القرآن الكريم فى آيات متعددة تفيض دعوة صريحة إلى العمل من أجل استتباب الأمن وتحصيل السلم ونشر معالم الأخوة والتعاون، ولم يتوقف الإسلام عند حدود تنظيم الإجراءات الكفيلة بتحقيق الأمن فحسب كما يجرى فى التنظيمات الوضعية الحديثة، بل حرص على أن يربى فى النفوس بناء النيات الصالحة والدوافع الخيرية والنزوع الدائم والطوعى إلى الأمن والسلام، وتدعيم أسس الألفة والطمأنينة.

لقد امتن الله تعالى على عباده بنعمة الأمن الروحى والمادى، بل وأمرهم بالشكر على ما امتن به عليهم من مقومات هذا الأمن فقال عز من قائل: " فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُـوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ " (قريش: ٣ - ٤).. ومن المشاهد اللافتة أن رسول القرآن عليه السلام قد أخبرنا عن ماذا يفعل الإسلام والدين والإيمان فى الفرد والمجتمع والدول.. جاء إليه بعض الصحابة يشكـون حالهم فقـال لهم: " والله ليتمن الله عز وجل هذه الأمر حتى

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون "، وفى القرآن المجيد: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (إبراهيم: ٢٤ - ٢٥).

فمن النصوص الشرعية، والمبادئ الإسلامية، والقواعد الكلية، والأحكام الفقهية، ظهر بالدليل والبرهان، والمنطق والعقل، والواقع والتجربة - عظمة الوظيفة التى يؤديها الإيمان فى الحياة بما ينسجم مع الفطرة البشرية، ويوافق التصور السليم عند الإنسان والكون والحياة وخالق الحياة جلّ شأنه، مما يقطع بحاجة الناس إلى الإيمان على المستوى الفردى والجماعى.

يورد السيد/بشار شريف دامار أن الأيام والسنين تتوالى، وتتعاقب الحوادث والأحداث لتؤكد هذا الأمر وتزيده وضوحًا وتؤكد أن الإيمان هو أساس الأمن المجتمعى، وأن العمل والحضارة والتقدم وإن كانت علامات رقى، إلا أنها لا تحل محل الإيمان، فالعلم بذاته سلاح ذو حدين، فمع ما فيه من احتمالات النفع والفائدة، إلا أنه قد يستخدم للتدمير والفتك والإبادة ما لم يلجمه الإيمان والأخلاق والقيم والرعاية الإلهية، ولذلك تتعالى الصيحات للعودة إلى الإيمان، والالتجاء إليه، والتفيؤ بظلاله، والاستئناس بقيمه وأحكامه، واستنشاق عبيره وعطره، ليهتدى الضال، ويؤوب الفاسق، ويستيقظ الغافل، ويستقر التائه، وينعم الجميع بما يحققه الإسلام من سعادة فى الدنيا، وينتسبون إلى روضة الإسلام الفيحاء، هذا الحصاد هو الذى أدى فيما تقول الدراسة إلى بروز الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية المعاصرة التى تستعين بالدين، وتطالب بتطبيقه، ليمارس وظيفته، ويحل المشاكل والمآسى والصعوبات التى ترزح تحتها الشعوب التى أعرضت عن دين ربها، وحجرت على حرية التدين، فنالها الشقاء واستشرت فيها الأمراض الاجتماعية والنفسية !!

أما دور الإسلام فى تحقيق السلام الاجتماعى، فيتجلى فى إقامة الروابط الاجتماعية الحية فى إطار شعور بالولاء والانتماء يربط بين الفرد والمجتمع،

وتقوية الروابط ودعم تماسك وتساند المجتمع فى قيمة المنبثقة من الإيمان، وحفظ النظام بمقومات الإيمان التى تمنع انتهاك حرمات المجتمع برادع من السلطة التى تضمن تنفيذه وتلاحق من يخرج عنه، أو على حد ما استشهد به الباحث من قول المودودى: " والشخص الذى وقر فى سويداء قلبه وأعماق ضميره الإيمان القوى الصحيح بالآخرة، يكون حاله كرجل يصحبه فى كل حال من الأحوال رقيب يمنعه من كل إرادة تجره إلى السوء، يردعه عن اتخاذ كل خطوة نحو الإثم، ويؤنبه على كل عمل ينكره الإسلام، سواء أكان فى الظاهر بعمل شرطة تقبض عليه أم بينة تدينه، أو محكمة تعاقبه، أو رأى عام يلومه على ما يفعله - أم لا يكون، إذ يستقر فى نفس الإنسان حسيب صعب المراس لا يجرؤ الإنسان - خشية منه - أن يتهرب من فرائض الله تعالى فى الخلوة أو فى الغابة أو فى الظلام أو فى البادية، ولا يقدر على اقتراف ما حرمه الله، وإذا اقترف - على سبيل الافتراض - يندم على ذلك ويتوب إلى الله".

وتلفت الدراسة إلى أنه لا يوجد سلاح أقوى من ذلك للإصلاح الخلقى وتنشئة الإنسان على السلوك المستقيم، فالقيم الثابتة التى يعطيها قانون الله الذى هو أسمى من كل شىء، لا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها ويعض عليها بالنواجذ، ولا أن يتصرف على هديها ولا يقبل عنها بديلا - إلا بفضل هذه العقيدة، أى: الإيمان بالله واليوم الآخر !

والسبب أن تصرفات الإنسان وحركاته تنبع من فكره وقلبه وعقله، وتتوجه حسب ما تمليه عليه عقيدته وقيمه، وليس كما يدعى ماركس وغيره من أصحاب النظريات المادية الهدامة !

تستشهد الدراسة على أهمية وأثر الوازع الأخلاقى واستجابته للأوامر الدينية أو آداب العقيدة - تستشهد بقول الأستاذ عباس العقاد:

" والغالب على الأمور القانونية أنها إرادية تكتفى بتحقيق السلامة، ولا تذهب وراء الأسلم الألزم إلى شوط بعيد ".

والغالب على الأوامر الأخلاقية أنها لدنية تعلم فيها الإرادة شيئاً، ولكنها لا تعمل كل شيء، بل يتولى الشعور أهم البواعث فى أعمال الأخلاق، ويشاهد فيها كثيرًا نزوع إلى ما وراء السلامة واللزوم وتفضيل للأجمل الأمثل من الأمر، فصاحب الوازع الأخلاقى لا يقنع بفروض القانون، ولا يزال متطلعًا إلى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود.

أما الغالب على الأوامر الدينية أو آداب العقيدة فهو الشمول الذى يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن، ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال، إلا أن تكون معهما الثقة التى لا تتزعزع فى صميم الحياة، بل فى صميم الوجود ".

بهذا الإيمان، وبشحنته الروحية، ومبادئ وقواعد وأحكـام شريعته، وبالوازع الدينى، يقوم بناء الفرد فى الإسلام، مثلما يقوم أمن وأمان المجتمع اللذان عليهما أمان الناس وصلاح الحياة والأحياء والبشرية جمعاء.

* * *

فى ذات محور "المقوم الإيمانى" - كتب سماحة الشيخ عثمان خان عليموف المفتى العام لجمهورية أوزبكستان - عن "القيم ودورها فى الأمن المجتمعى"، وما كتبه سماحته أقرب إلى التعريف بأوزبكستان وظروفها التاريخية وتلك الناجمة عن تعدد الأديان فيها بين الإسلام والمسيحية والزرادشتية والبوذية، وتجربتها الخاصة فى التعامل مع هذه التعددية بالقيم الإسلامية التى تقوم على المساواة والتسامح واحترام الأديان الأخرى.. لم يحل هذا التعدد دون ثراء العطاء الإسلامى للمجتمع بعامة.. ثقافته وآثاره ومعاهده ومكتباته، وعطائه لأمن هذا المجتمع الذى يسهم الإسلام بدور كبير فى صيانته وحفظه من خلال منظور واضح الغاية والمعالم.

يحدثنا سماحة الشيخ عثمان خان عليموف عن تضامن وتعاون الجمعيات والمؤسسات الدينية والحكومية فى إحياء القيم الدينية، ومنع الحرمات الشاردة التى تهددها، وحل القضايا السلوكية وتنظيم الأسرة وتربية الأجيال الناشئة فى حضور ملحوظ للقيم الدينية والمفاهيم الإسلامية.

حول خطوط هذه المنظومة الإسلامية، يحدثنا الكاتب عن تربية الجيل الناشئ والعناية بتعليمه العلوم والفنون المختلفة وتعميق الوعى، وعن إنشاء جامعة طشقند الإسلامية ومعهد طشقند الإسلامى باسم "الإمام البخارى" لتسهم الجامعة والمعهد فى بث العلوم والقيم الإسلامية، وتخرج رجال الدين والعلماء. ويثنى الكاتب - ببيان الدور المهم الذى تؤديه القيم الإسلامية فى تأمين الأمن والسلام للقوميات المختلفة الموجودة فى أوزبكستان، والاهتمام بالمحافظة على أفضل مستوى للمعيشة القومية، مع سيادة التسامح الدينى، وتعزيز العلاقات الثنائية بين الأديان بالأسس الحقوقية والسياسية والاجتماعية، إلى جانب العادات والتقاليد التاريخية، وضمان المساواة أمام الدستور فى الحقوق والحريات بغض النظر عن الأجناس والأعراف والقوميات، مما يصب فى النهاية فى تعايش مشترك مظلته الأمن والأمان. الزاد الذى يبث هذه القيم يجمع بين الأصالة متمثلة فى رعاية التراث والآثار الإسلامية الباهرة وترميم المساجد: مسجد "الكلان" فى بخارى و " شاه زنده " فى سمرقند، و" كوك كمبذ "فى قرشى، ومجموعة مساجد ".الإمام البخارى " المبنية حديثا، وغيرها.. وبين المعاصرة التى قوامها تكريس النشر وزيادة مساحته وامتداده للإنتاج الأدبى والفنى والمعرفى المبدع.. إلى جانب عنايته بالتراث الثقافى الذى امتد إلى اهتمام خاص بالمحافظة على المصحف العثمانى والنسخ النادرة المخطوطة والمطبوعة للقرآن الكريم بمختلف اللغات.

عُنِيَ الكاتب فى معرض استقصائه وسائل تحقيق الأمن المجتمعى، بالإشارة إلى مكافحة جهالة المتمردين وأرباب العنف والعدوان، والتعريف

بجوهر وحقيقة الإسلام ودعوته السلمية والإنسانية، ووجوب التقارب بين الأديان والثقافات لحفظ العالم وأمنه من الأخطار التى تتهدده.

الإسلام دين شامل لا ينسب إلى دولة بعينها أو إلى شعب دون آخر أو إلى جماعات معينة، فهو دين العالمين.. أحكامه وتعاليمه صالحة لكل زمان ومكان، تهدى الإنسانية إلى سواء السبيل، وتعزز قيمة وكرامة الإنسان، وتوفر بمنظومة قيمها الرفيعة الأمن والأمان للمجتمع والأسرة الإنسانية بأسرها.

المقوم الإيمانى
والتعدديات الدينية والمذهبية والقومية والعرقية

من واقع اختلاف الناس فى تكويناتهم ومشاربهم وعقائدهم ومذاهبهم، واختلاف الأديان فى بقاع الأرض بين أكثرية وأقلية، ومفتوحة ومغلقة، وتنوع الملل والشرائع وتعدد ثقافاتها وحضاراتها، فإن المحور الأول، وهو المقوم الإيمانى، الذى طرح فى الملتقى البحثى لمقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام، قد تضمن بحوثا ودراسات ومقالات تعرضت للتعددية بكل أنواعها وما تقتضيه معالجتها من أساليب وغايات حرص عليها الإسلام لتحقيق الأمن المجتمعى برغم هذه التعددية.

كتب سماحة الدكتور الشيخ تيسير التميمى - من فلسطين، عن" التعددية الدينية والمذهبية والقومية " وكتب الدكتور عبد الحميد عثمان - من ماليزيا، عن التعددية الدينية والعرقية، وكتب سماحة الشيخ الأمين عثمان الأمين - من إرتيريا، عن التعددية الدينية والمذهبية والقومية، وكذلك الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عباد من فلسطين، كما كتب الدكتور بروفيسور / شيخ الإسلام شكر باشا زادة - من أذربيجان عن " التسامح فى ظل التعددية الدينية والمذهبية والقومية فى جمهورية أذربيجان.

يبدأ سماحة الدكتور الشيخ تيسير التميمى، رئيس المجلس الأعلى للقضاء الشرعى - فلسطين، بحثه بنفى مظنة البعض أنهم مضطرون لتفصيل مبادئ الإسلام لموافقة واقع التعددية وقبول الآخر، بينما الحقيقة أن الإسلام سبق غيره للتأصيل لهذه القضايا الفكرية ومعالجتها بما سبق الحضارة الغربية بكثير.

فمبادىء وأحكام الإسلام - كدين للعالمين - صالحة لكل زمان ومكان، وتميزت ــ بهذه الخاصية - بقدرتها على التعامل والتفاعل مع كل القوالب المعاصرة، وهو ما يجب تجليته وبيان اتفاق مبادىء شريعة الإسلام مع المصطلحات الحالية، فلاغرابة فى تعبير " التعددية " لأن مقصودها يعنى مشروعية التعدد، وحق أصحاب المذاهب والآراء المختلفة فى التعايش والتعبير، وقد حفلت مصنفات الفقه الإسلامى بالعديد من حوارات ومناقشات وبراهين العلماء على آراء كل منهم، واحترم الإسلام الخصوصية الثقافية والبيئية للشعوب التى دخلت فيه، وللشعوب الأخرى التى احتك بها أو تعامل معها.

والقرآن الكريم نزل على سبعة أحرف هى أبرز لهجات العرب ليتمكنوا من استيعابه وفهمه، واتسعت التطبيقات للتوجيهات النبوية لآراء الصحابة والتابعين وأهل الفقه، مثلما اتسعت للآراء فى التفسير والتأويل والفتوى، كما اتسعت لقبول الاختلاف فى الفروع والمسائل الفقهية، وأشار القرآن الحكيم إلى تعدد واختلاف الألسنة بين بنى البشر" وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" (الروم: ٢٢)، وفى سنن الاختلاف بين الناس قال عزّ من قائل:" وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود: ١١٨)، وفى مواجهة هذه التعددية دعا القرآن الكريم إلى التعارف بين الشعوب: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات: ١٣).. ومع أن الدين عند الله الإسلام، وهو الدين الخاتم " وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ " (آل عمران: ٨٥)، إلاّ أن الإسلام لم يسفه بل احترم الديانات الأخرى، وورد فى القرآن الحكيم بيانا لذلك قوله تبارك وتعالى:" آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (البقرة: ٢٨٥).. ولم يغلق الإسلام باب الإجتهاد أمام أهل العلم والفقه، وسلم الإسلام بوجود التعددية القومية.

موقف الإسلام من هذه التعددية التى تمثل واقعاً فى الحياة، يعبر عنه حديث رسول القرآن ﷺ: " يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر ــ إلاّ بالتقوى "... جمع الإسلام بين عمار بن ياسر العربى، وسلمان الفارسى، وصهيب الرومى، وبلال الحبشى، ثم جمع عبر القرون بين العربى والتركى والصينى والهندى والأندونيسى والأفريقى والأوروبى، واتسعت واحته لهم جميعا على سنة المساواة.

عن التعددية الدينية والعرقية، كتب الدكتور عبد الحميد عثمان ــ من ماليزيا، ليميز بين واقع يفرز حقيقتين لا خلاف عليهما: ــ (١) وحدانية الخالق (٢) تعددية الخلق، وأنه على هذا التصور الصحيح قامت عقيدة الإسلام وفكرته عن الوجود، فساوى لذلك بين الأجناس، وجعل التقوى هى المعيار الوحيد للمفاضلة (الآية ١٣ من سورة الحجرات). فإذا كان مصطلح التعددية مستحدثاً منذ العقدين الأخيرين من القرن العشرين تقريبا، إلاّ أن مفهومه قديم قدم الحياة بغض النظر عن العبارات والمسميات الإصطلاحية. ولذلك لم ينكر عاقل وجود هذه التعددية كواقع للحياة، و كان للإسلام فضل السبق إلى تبنى قدرة مختلف الفئات العرقية أو الدينية أو الأيديولوجية على التعايش جنبا إلى جنب فى كل بقعة من بقاع الأرض.

صرح القرآن الحكيم بهذه التعددية ودعا للسبق إلى الخيرات، فقال تبارك وتعالى: "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ" (البقرة: ١٤٨)، فهذه التعددية قد تكون سلبية تؤدى إلى التناحر والصراع، وقد تكون إيجابية تصل بنضجها إلى التعايش فى إطار التسليم بأن التعددية سنة كونية. هذا الفهم نراه فى القرآن المجيد فى مواضع عديدة، فهناك من الخلق - المفطورون على عبادة الله: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (التحريم: ٦).. والإنسان فى إطار آيات القرآن المجيد عن وجود التعددية كسنة كونية ووجوب التعامل معها بفهم وإسماح، أورد أن الإنسان هو الذى يقرر مصيره بنفسه لنفسه" مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا" (فصلت: ٤٦).." فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ" (الكهف: ٢٩).. وفى المقابل بالمشيئة الراشدة: " لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا " (الفرقان:٦٢).

يتوقف الدكتور عبد الحميد عثمان متأملا فاحصا فى التعددية والاختلاف المذهبى وفى التعددية الثقافية، والتعددية العرقية.. ليبين كيف واجه الإسلام هذه التعدديات وغيرها ؟.. واجهها بدعوته الراشدة للانفتاح والعدل والمساوة والتسامح، وهذه المنظومة هى التى تحقق وتضمن لكل فرد فى المجتمع الإسلامى سلامة وأمان النفس والعرض والمال، ولا ينهى الدكتور عثمان بحثه دون أن يطوف بالمجتمع الماليزى وكيف حل الإسلام فيه مشكلة التعددية حلاً سبق به الإسلام جميع الشرائع والنظم وقوانين الناس.

وتحت عنوان التعددية الدينية والمذهبية والقومية، كتب سماحة الشيخ الأمين عثمان الأمين من إريتريا، والدكتور عبد الرحمن عياد من فلسطين - فيستهل الشيخ الأمين عثمان بحثه بالتنويه إلى تكريم الله تبارك وتعالى للإنسان فيما تحدثت به سورة الإسراء (الآية: ٧٠) لينتقل إلى تعدد الرسالات حتى انتهت بالإسلام الدين الخاتم فيقول عزّ من قائل: " كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (البقرة: ٢١٣)، ثم بعث سبحانه وتعالى برسول القرآن ليكون هداية للعالمين: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (سبأ: ٢٨).. فكيف تعامل الإسلام مع ماسبقه من ديانات ؟ وكيف تعامل مع أهل الكتاب وغير المسلمين ؟

لقد نهى القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلاّ بالتى هى أحسن:" وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنـزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (العنكبـوت: ٤٦)، وأمر بمعاملة غير المسلمين بالبر والقسط:" لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة: ٨)، وأمر بالعدل بعامة حتى مع الأعداء.. " يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَـى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائـدة: ٨)، وأقام علاقة المسلمين بأهل الكتاب على سنة أجملها القرآن المجيد بقـوله تبارك وتعالى:" الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِـلٌّ لَّكُـمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِـنَ الَّـذِينَ أُوتُـواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِـذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِـرَةِ مِـنَ الْخَاسِـرِينَ" (المائدة: ٥).

أما العلاقة بين الإسلام والمسيحية، فعلاقة لها خـصوصية تحـدث عنهـا القرآن الحكيم، فقال عزّ من قائل:"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَـصَارَى ذَلِـكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ" (المائدة: ٨٢ - ٨٣).

لقد اتخذ الإسلام موقفا بالغ الحكمة والإنصاف باحترامه لكافة الرسالات والنبوات السابقة على الديانة المحمدية، وبحمايته مقدسات كل الأديان من أى انتهاك، ودعا إزاء التعددية القومية للتوحد وفى إطار العدل والمساواة، وقد استطاع الإسلام بذلك أن يؤلف بين القلوب، ولذلك وجد أهل الكتاب وغيرهم السلام والأمان فى واحته التى اتسعت فى عدل وإسماح لكل ضروب التعددية.

إضافة لما سبق واتفق معه بحث الدكتور عبد الرحمن عياد الأمين العام لهيئة العلماء والدعاة فى بيت المقدس بفلسطين، فإنه نوه إلى أن سياسة الحكم فى الإسلام تقوم على أسس ثلاثة:

(١) العدل من الولاة: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ" (النحل: ٩٠).. " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ..

(٢) الطاعة من المحكومين " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ " (النساء٥:)..

(٣) الشورى بين الحاكمين والمحكومين..عملا بقوله سبحانه وتعالى:"وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" (الشورى: ٣٨).

إن ما شرعه الإسلام، موافق مناسب لكل عصر، فى واحته وطبقا لمبادئه وأحكامه وهدايته وعدله وإنصافه وإسماحه، يتحقق به للجميع مظلة وارفة من الأمن والأمان، تشمل المجتمع برمته أفرادا وجماعات.. فالإسلام قد جاء ليكفل الحياة الكريمة للإنسان فى طعامه وشرابه وسكنه وحريته، وجعل الرحمة جوهر الرسالة المحمدية فقال فى محكم تنزيله لرسول القرآن: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧).. هذه الرحمة العامة، تتسع لتشمل الكافة، مسلمين وغير مسلمين، عربا وغير عرب.. أمام الله سبحانه وتعالى تتوارى العصبيات والعرقيات، وتبقى هذه الرحمة العامة لهذا الدين الحنيف الذى جعله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين إلى يوم الدين.

المحور الثانى
العدل الاجتماعى فى الإسلام

شكل العدل الاجتماعى فى الإسلام، المحور الثانى من المحاور البحثية فى مؤتمر الأمن المجتمعى فى الإسلام.. وفيه كتب الأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى عن التكافل الاجتماعى فى الإسلام، وكتب الأستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى عنوان: " محور العدل الاجتماعى ودور الوقف فى تحقيق الأمن المجتمعى "، بينما كتب الأستاذ محمد على التسخيرى (من إيران) - عن دور الوقف فى تحقيق العدالة والأمن المجتمعى، واختار نفس الموضوع الأساتذة الدكاترة محمد صلاح المستاوى (من تونس)، وعبدالله بن سعود المحيلبى (من الكويت)، وزيد بن يعقوب المفتاح (من البحرين)، وعكرمة صبرى (من فلسطين)، وأبو بكر رفيق (من بنجلاديش)، وحسين محمد حلاوة (من أيرلندا)، ومحمد عبد الحليم عمر (من مصر)، وعن دور الزكاة فى تحقيق الأمن المجتمعى كتب الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل مفتى الديار المصرية الأسبق، والشيخ أمين الدين محمد إبراهيم (من موزمبيق)، وكتب الأستاذ كهلان بن نبهان الخروصى (من عمان) عن الأمن والمال فى الإسلام، واختار الزكاة كنموذج لذلك، بينما كتب الأستاذ على بن منظر بن الأستاذ جميل أختر بن حبيب المصباحى - إمام الجامع بالمسجد الكشميرى فى نيبال - كتب عن العدل الاجتماعى كركيزة للأمن المجتمعى فى الإسلام، وكتب الدكتور محمد أحمد مصطفى الكزنى (من كردستان) عن تحديد مفهوم العدالة التوزيعية والتعويضية، وكتب الشيخ سليمان كمارا (من سيراليون) عن الزكاة وأنواعها فى تحقيق الأمن المجتمعى.

ويتضح من عناوين البحوث، أن " الوقف " ثم " الزكاة " - مثلا نحو ٩٠% من البحوث المقدمة، ومع أهمية كل من الوقف والزكاة وما يسمى بالعدالة التعويضية، إلا أن تكرار البحوث المقدمة فى هذا الباب - يورى بأنه ربما كان من الأفضل الاتفاق سلفا مع الباحثين على الموضوعات ضمانا لتنوع البحوث وتغطيتها جانبا أعرض من معانى العدالة فى الإسلام، وهى عدالة لها من الأصول ما يحقق وبوسائل استباقية الإحساس العام بالعدل والقسط والإنصاف والمساواة فى منظومة شاملة تكفل اطمئنان كل فرد إلى أنه مكفول الحق فى فرص متكافئة فى العمل والرزق والحماية والتمتع بالحقوق وفى المساواة أمام القانون وفى نصفة القضاء وكفالة وكرامة الإنسان وحريته وحقوقه العامة والخاصة، وكلها وغيرها يسبق ما يسمى بالعدالة التعويضية التى ترتق التفاوت وترأب الصدع وتجبر الفوارق.

من ست سنوات أوردت عن العدالة فى كتاب " عالمية الإسلام، أن الإسلام بمنظومته السامقة أقام دوحة وارفة يستطيع كل أعضاء المجتمع أن يستظلوا بظلها الظليل، وأن يعيش كل منهم آمنا مطمئنا فى رحابه على نفسه وماله وحريته وعرضه، مهما كان عرقه أو جنسيته أو ديانته أو مكانته أو نسبه أو ماله أو غناه أو فقره أو قوته أو ضعفه.

لم ينظر الإسلام لإقامة العدل فى المجتمع كمحض فضيلة مطلوبة وكفى، وإنما أقام عليها حياة المجتمع كقاعدة لأسس صحيحة آمنة تستقيم وتتواصل وتمضى معها حياة الناس فى ارتياح نفسى وطمأنينة وأمان وسلام. فى هذه الدوحة المشعة بالعدل والمكفولة الرعاية به - لا يتغول أحد على آخر، ولا يجورعليه أو يفتئت على حقوقه أو يمس كرامته أو يتجنى عليه أو يسىء إليه.

هذه المعانى السامية لا تنتظر التفاوت أو الضيم لتجبره أو تتداركه كشأن الزكاة أو الصدقة، وإنما هى تسعى سعيا إيجابيا استباقيا حثيثا لتهيئة وتوفير ما يتجنبهما ويحقق العدالة والمساواة. فالعدل اسم من أسماء الله الحسنى

وصفة من صفاته. ويعرف المسلم من القرآن المجيد أن الله تعالى قد أنزل كتبه ورسله وشريعته بالعدل، ولإقامة الحق والقسط.." لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ "(الحديد: ٢٥).. وإقامة العدل إحدى دعائم وأركان رسالة الإسلام التى اتجهت إلى العالمين.. بها أوصى عز وجل رسوله الأمين فقال له:

" وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ" (الشورى: ١٥).. ويقول جل شأنه للمؤمنين:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة: ٨)

لا غرو أن كان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إمام العادلين، فى أكنافه كانت واحة العدل، طفق يبلغ رسالة ربه ويوصى بما أمر الله به: " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ " (النحل: ٩٠)..

لم يخص الإسلام المسلمين وحدهم بالحماية من الظلم، وإنما شمل حمايته للجميع..ففى القرآن المجيد: "وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ" (غافر: ٣١).. ويوصى نبى الرحمة - نجباء مدرسته الأبرار فيقول لهم: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة "..

والعدل فى الإسلام من "عزم الأمور" الذى تجمل فيه سجايا وأخلاق وشمائل الإسلام. هذا العدل - فيما قلناه بكتاب عالمية الإسلام - يتسع لكل الناس، ويشمل جميع المجالات. العدل أساس الحكم والولايات بعامة.." إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا " (النساء: ٥٨).. وفي سورة ص: " فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ " (ص: ٢٦).. هذا العدل لا يستثنى من دوحته أو من إنصافه أحداً..

حتى من التوت نواياهم.. فيقول القرآن الحكيم عن هؤلاء: " سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة: ٤٢).

قد جعل سبحانه وتعالى إقامة العدل قانونا عاما فى خلقه وفى الوجود كله، وعبر القرآن المجيد عن ذلك أصدق تعبير حين قال: " اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" (الشورى: ١٧).. وفى سورة الحديد: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" (الحديد: ٢٥)

العدل الذى رعاه ويرعاه الإسلام لا يتجزأ، والمسلم العادل لا يفارقه عدله، إذا شهد يشهد بالعدل.. ولا يصرفه عن الشهادة بالحق والعدل - شنآن شانئ ولا إساءة مسيء.. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة: ٨).. ينضح عدله فى كافة معاملاته، يفى للناس بحقوقهم، ويفى بالكيل والميزان، ولا يخسر الناس - كل الناس - أشياءهم.." فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ" (الأعراف: ٨٥).." وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ "(الرحمن:٩).. "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " (المطففين من: ١ - ٣)

والوفاء بالوعد والعهد سجية إسلامية مع المسلم ومع غير المسلم.. فالقرآن المجيد يصف المؤمنين بأنهم هم الذين " لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " (المؤمنون: ٨).. وهم بهذا مأمورون فى الكتاب المجيد: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ " (المائدة:١).. وفى سورة الإسراء:" وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً" (الإسراء: ٣٤).

وإقامة المسئولية فى شرعة الإسلام أساسها الاستطاعة وفى إطار مبدأ شخصية المسئولية.. فكل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وفى القرآن أيضا: " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا " (الإسراء: ١٣).. لا يساءل الإنسان إلاّ على قدر استطاعته، فلا تكليف - عدلا - بمستحيل.."لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" (البقرة:٢٨٦).." وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" (المؤمنون: ٦٢).. ومن عدل الإسلام أن راعى الضرورات والقوى القاهرة وتأثيرها على الأهلية لتحمل المسئولية، فأقام من حالة الضرورة عذرا عاما يقيل المكلف من تقصيره بل من خطئه: " فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (البقرة: ١٧٣).. وفى سورة النحل: " فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (النحل: ١١٥)..

وفى الحديث النبوى: " الضرورات تبيح المحظورات ".

وحماية الإنسان من أن يساء به الظن، ضرب من ضروب العدالة المحققة للأمن والأمان فى الإسلام.. فى النهى عن المعاجلة بسوء الظن قال القرآن الحكيم:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاتَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ" (الحجرات: ١٢).. وفى إيجاب التروى للتبين والتحرى وتجنب الاندفاع الأعمى الذى يقلقل أمـــان الناس: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات:٦).

واجب إحقاق الحق والعدل *

يعتنق الإسلام أن إحقاق الحق والعدل بين الناس واجب يتعين على المسلم أن يلتزمه ويحرص على تحقيقه. والقضاء هو الحكم العدل بين الناس فيما فيه يختلفون أو يتصارعون.. الشاهد عادة - هو عين العدالة.. لذلك عنى به الإسلام، فاشترط الأهلية أولاً لأداء الشهادة واشترط فيه العدل وحضه على التزامه.. وفى شرط العدالة يقول القرآن:"وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ "(الطلاق:٢).. فالعدالة شرط للشهادة، ولا يكتفى القاضى فى الإسلام بظاهرها، وإنما يستوثق ويستقصى حال الشاهد، ولا ينفذ الحكم بشهادته حتى يتبين له عدله فى الظاهر والباطن.. الشاهد لا تقبل شهادته فى الإسلام، لأنه لايتحقق فيه العدل والحياد، إذا كان ذا هوى أو مصلحة أو خصومة أو عداوة.. وفى حديث رسول القرآن عليه السلام:" لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ولا ذى إحنة (أى عداوة) ".. فالشبهة مسقطة للعدالة، وبالتالى للشهادة، والعدالة - فيما يقول الفقهاء - شرط لقبول الشهادة لا يثبت القبول أصلاً بدونها.

الإسلام لا يدع الشاهد لشأنه ورغباته يؤدى الشهادة أو لا يؤديها !، فالشهادة واجب، لله، وللحق.. لايجوز للشاهد أن يتخلف عن أداء الشهادة، ولا يقبل منه حجبها.. الإسلام هنا لا يتخذ موقفاً سلبياً مكتفياً بوصيته فى شروط الشاهد واشتراط عدله، ولا يكتفى بطلب العدل منه، وإنما يتخذ موقفاً إيجابيد فى توخيه تحقيق العدالة فعلاً وواقعاً.. فيحض الشاهد على القيام بواجبه وأداء الشهادة.. ويحذره ويرهبه ويخوفه من حجبها والقعود عنها، فيقول القرآن الحكيم فـى ذنـب ووزر وخطيئة حجب الشهادة:" وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن

---

* عن كتاب عالمية الإسلام - رجائى عطية - مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ ط ٢٠٠٣

يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ " (البقرة: ٢٨٣).. كتمان الشهادة كتمان للحق، والحق سبحانه وتعالى يقول: " وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة: ٤٢).

الإسلام لا يرضى للشاهد إلاّ أن يكون عادلاً فى شهادته، ولا يعذره فى ترك العدل مهما بلغ عذره.. لا شنآن أحد الأخصام يعذره، ولا قرابة قريب تعفيه، ولا كون المشهود به يقع عليه يقيله من واجب التزام العدل.. فى القرآن المجيد: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى" (الأنعام: ١٥٢).."يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ (النساء: ١٣٥).. "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى "(المائدة: ٨).. فالشهادة شهادة للحق، ولله.." وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ" (الطلاق: ٢).. الشهادة التى تقام لله، لابد أن تكون شهادة صدق وعدل، لذلك كان وزر الشهادة الزور وزراً عظيماً.. المسلم مأمور اجتنابها: "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ " (الحج: ٣٠).. والبعد عن الشهادة الزور صفة لازمة وحتمية من صفات المؤمنين الذين فيهم قال القرآن: "وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا " (الفرقان: ٧٢).

حرص الإسلام على تحقيق العدل اقتضى منظومة شاملة جامعة.. تعقبت النشاط الإنسانى فى كافة صورة وأشكاله بل ومظانه.. ولم تترك شاردة ولا واردة دون أن تضع دستورا لها يضمن السواء والعدل والإنصاف بين الناس.. من هذا الحرص الذى يحمى الآدمى من طمعه أو جموحه، وضع الإسلام ضمانات فى المعاملات المدنية، فأمر بالكتابة لغلق أبواب الخلاف والخصام، ودرء الظلم والجور.. واشترط "العدل" فى الكاتب مثلما اشترطه فى الشاهد.. يقول عز من قائل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ". (البقرة: ٢٨٢).

واحة العدل فى الإسلام تتبعت كل مظان الخلاف أو التطاحن أو التخاصم، وحضت المسلم فرداً كان أو جماعة، على أن يكون قوة فاعلة معطاءة لإصلاح

ذات البين.. والإصلاح بين المتخاصمين أو المتقاتلين بالعدل والقسطاس.. فالعدل وحده هو الكفيل بنزع أسباب الفرقة والخصام والصراع والقتال، وإحلال الأمن والسلام..." وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"(الحجرات: ٩).

القضاء فى الإسلام، حصن العدالة الحصين، وركنها الركين.. وظيفة القضاء فيه وظيفه جليلة، لا يُختار لها ولا ينهض عليها إلا الأكفاء المشهود لهم بالعلم والعدالة.. يقول رسـول القرآن عليه السلام:" القضاة ثلاثة، قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار. فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، وأما الذى فى النار فرجل عرف الحق فجار فى الحكم، ورجل قضى على جهل ". قالوا: فما ذنب الذى يجهل ؟ قال:" ذنبه ألاّ يكون قاضيا حتى يعلم "!!

أينما يولى الباحث فى دوحة الإسلام، يرى العدل مرعيا أقيمت عليه حياة المجتمع، إقامة توفر الأمن والأمان والكرامة لكل أفراده بلا تفرقة لعرق أو لون أو دين أو مال أو جاه أو نفوذ.

المكتبة الإسلامية ثرية ثراء ملحوظا فى الكتابة عن دوحة العدالة فى الإسلام، على أن التناول فى الملتقى البحثى الذى نستعرض ما قدم فيه - يركز على انعكاسات العدالة على الأمن فـى المجتمع، وهذا " الأمان " هو المعنى الواجب الذى تدور حوله فكرة الكشف عن " العدل " كمحور أساسى للأمن المجتمعى فى الإسلام..

فى إطار فكرة التساند كتب الزميل الأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى عن " التكافل الاجتماعى فى الإسلام " - ملاحظا أن المنهج الإسلامى فى تحقيق التكافل قائم على هدى النواميس الكونية، لتحقيق التعاون بين البشر من ناحية، ورعاية الصالح المشترك الذى به يتعايش ويتكاتف ويتساند الناس على اختلاف حظوظهم وقدراتهم مـن ناحية أخرى. يقول عز من قائل: " أَهُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ " (الزخرف: ٣٢).

حظوظ الناس فى الحياة متفاوتة، فى الرزق وفى الصحة وفى النسل وفى المال وفى القوة وفى المواهب وفى القدرات. ولو ترك الناس لقانون القوة ما استطاع أن يعيش الفقير والضعيف والعليل والمريض.. مفتاح العدالة هنا هو التكافل الاجتماعى الذى به يجبر القوى الضعيف بقوته، ويعين الغنى الفقير بماله، ويتساند القادر مع غير القادر، والصحيح مع العليل، والمكتفى مع المحتاج.. عن هذا التكافل عبر حديث رسول القرآن: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا "، وزاده عليه السلام بيانا فى حديثه: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى ".

هذا النموذج التكافلى المتفرد الذى قدمه الإسلام بلا تفرقة لجنس أو لون أو دين، يصفه الدكتور الجندى بأنه: " جمع بين المثال والواقع والروح والمادة فى نسق متوازن احتشدت فيه القوى البشرية على اختلاف أجناسها وأديانها وألوانها، انضووا جميعاً تحت مظلة الإسلام: العقيدة والشريعة والنظام والأمة المتجانسة، رغم ما بينها من اختلافات وفوارق فى مجتمع مركب ".. هذا النظام ضمَّ العنصر العربى وغير العربى، والمسلم وغير المسلم، كل هؤلاء تألف منهم المجتمع فى الإسلام، وحصلوا على كافة الحقوق التى يوفرها الإسلام ويعطيها بلا تفرقة، ومن ثم تمتع كل فرد بحاجاته الأساسية الضامنة لأمانة ولمستوى الحياة الكريمة التزاما بقوله تعالى: " إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى " (طه: ١١٨ - ١١٩).

دور الوقف فى تحقيق الأمن المجتمعى

عن محور العدل الاجتماعى ودور الوقف فى تحقيق الأمن المجتمعى، كتب الأستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى، فبدأ بالعناصر الأساسية للاقتصاد ركاز هذا الأمن:

(١) كفاية الإنتاج. (٢) تكافؤ التبـادل.

(٣) عدالة التوزيع. (٤) ترشيد الاستهلاك.

من هذه الأسس، اتخذ الإسلام موقفا وسطا رشيدا لضمان الأمن الإيمانى والأمن العسكرى والأمن السياسى والأمن الاقتصادى والأمن الإجتماعى. بعد ذلك يعود الدكتور الفنجرى، وهو من علمائنا البارزين فى الاقتصاد الإسلامى، إلى الإسلام و " العدل الاجتماعى"، ليستحضر أنه حرص فى هذه المنظومة على" ضمان حد الكفاية لكل مواطن ".. حد الكفاية لا حد الكفاف، بدليل قوله سبحانه وتعالى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَـامِ الْمِسكِينِ " (الماعون: ١-٣). بينما فى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن أيّما أهل بقعة أصبح فيهم جائع، فإن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم.. هذا الضمان لحد الكفاية، يسلس إلى ما أطلق عليه الدكتور الفنجرى: "حفظ التوازن الاجتماعى أو التفاوت المنضبط ".. لافتا إلى أن"العمل" - بحسب الأصل - هو أساس الثروة والغنى.. ففى سورة الأحقاف "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" (الأحقاف: ١٩).. وفى سورة النساء: "لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا "(النساء: ٩٥، ٩٦).. هذا الجهاد هو المجاهدة بكل أنواعها، والسعى بكل صوره، الذى فيه قال القرآن المجيد: " وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى" (النجم: ٣٩ - ٤١).

لا يتوقف الدكتور محمد شوقى الفنجرى عند غاية الإسلام فى حفظ التوازن الاجتماعى، وإنما يتقصى أساليبه ووسائله فى تحقيق هذه الغاية.. فيتمثل بما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - إزاء ما ظهر من اختلال المراكز المالية والاجتماعية فى دار الهجرة، ومؤاخاته المشهورة بين المهاجرين والأنصار، وحثه على فلاحة وعمار الأرض فى نصحه للمسلمين: "من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ولا يكريها ".. أى لا يؤجرها وإنما يقدم الفلاحة والإنتاج على الإجارة والاستغلال.

وفى سبيل هذا الضمان، حرّم الإسلام كنز الأموال والذهب والفضة، وأوصى بعدم إعطائها للسفهاء (النساء: ٥)، وجعل المال فى خدمة الخير فقال القرآن الحكيم:" وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (آل عمران: ١٨٠)، وقال فى خصال المؤمنين: " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر:٩)..

لم يكتف الإسلام بالدعوة النظرية لضمان التكافل الاجتماعى تحقيقا للعدل والأمن المجتمعى، فتبنى "مؤسستين" لضمان تحقيق هذه الغاية: " مؤسسة الزكاة "، وهى ركن من أركان الإسلام.. تعتنى بتكامل المجتمع ورتق الحاجات.. وفى حرص على تحرير الإنسان من عبودية الحاجة، يقول الحكم العدل تبارك وتعالى: " فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ" (قريش: ٣، ٤).. وفى سورة النساء:" لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ" (النساء: ١١٤)..

وفى وصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إلى صاحبه معاذ بن جبل حين ولاّه على اليمن: " أعلمهم أن الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ".

أما المؤسسة التعويضية الثانية، التى ضمن بها الإسلام التكافل الاجتماعى تحقيقا للعدل والأمن المجتمعى، فهى" مؤسسة الوقف ".. والوقف فى كلمة موجزة هو إخراج المال من ملك صاحبه إلى ملك الله تعالى - أى حبس أصل العين والتصدق بريعها لأوجه خير معينة مثل برّ المحتاجين أو رعاية المساجد والمدارس والمستشفيات وغيرها، ولأن الوقف فى جوهره صدقة جارية، فإن شأنه كالزكاة.. عبادة مالية وتكفير عن الذنوب.

يتوقف الدكتور الفنجرى، وهو أستاذ متميز فى هذا المضمار ورئيس للجمعية الخيرية الإسلامية - يتوقف عند مؤسسات الأوقاف الخيرية، بدءًا بوزارة الأوقاف فى العديد من دول العالم الإسلامى، ومرورا بالجمعيات والروابط والندوات الخيرية التى تنهض على هذه الرسالة التى فيها يتضح دور الوقف فى تحقيق الأمن الاجتماعى من خلال غاياته الخيرية والتعويضية واستثماراته التى تكفل زيادة فرص العمل والقضاء على البطالة وبر الفقراء والمرضى والمحتاجين، وخدمة التعليم ومقاومة الأمية، وفى أوجه خيرات لا تُحصى ولا تُعد تنعكس على المجتمع وتكفل بدورها تحقيق العدالة ومن ثم أمن المجتمع الذى يتكافل فيه الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والأصحاء والمرضى، ويستشعر كل فرد فيه أنه ينتمى إلى مجموع يحرص عليه ويكفله.

* * *

فى ذات هذا الموضوع، كتب الأستاذ محمد على التسخيرى من إيران، فتحدث عن أسس العدل الاقتصادى: التكافل والتعادل، سواء التكافل الفردى (فى خدمة حاجات الفرد الأساسية)، أم التكافل الاجتماعى الذى يعنى أن تكون

الدولة ضامنة - نيابة عن المجتمع - لتوفير الحاجات العرفية للأفراد، أو الحاجات الأساسية لمجموع المجتمع فى الإسلام، والذى قوامه التكافل والتعادل أى ضمان العدالة الاجتماعية التى هى روح الاستقرار والسلام والأمن والأمان. ولا يترك الأستاذ التسخيرى البحث دون أن يعرض للوقف وأبعاده وغايته وحالاته وأحكامه وأثره فى الأمان النفسى من ناحية، والأمان الاقتصادى من ناحية أخرى، وكلاهما يدلى بأثره على الصعيد الإنسانى ويصبان فى أمن المجتمع.

الزكاة ودورها فى تحقيق الأمن المجتمعى

ويخصص الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل، مفتى الديار المصرية الأسبق - يخصص بحثه للزكاة ودورها فى تحقيق الأمن المجتمعى، فينتقل من تعريفها وبيان الدعوات المتكررة إليها فى القرآن والسنة، إلى ذكر نصابها تبعا لأنواعها، كزكاة الإبل والماشية والزروع والثمار والمعادن والعروض والتجارة، وإلى بيان فضائلها ودورها فى تحقيق الأمن المجتمعى. فأمن المجتمع القائم على الكفاية والعدل، هو الهدف الأساسى والغاية القصوى لرسالة الإسلام، والزكاة إحدى أهم وسائله للتواصل الإنسانى وجبر الفقر والحاجة، والمرض والعجز، وبذل المال لخدمة الحياة البشرية وتحقيق الوظيفة الاجتماعية التى تنعكس آثارها الطيبة على الفرد والمجموع.

والإسلام فى هذا السبيل، لم يفرق بين تنمية المال وتنمية الإنسان، فكلاهما يصب فى غاية واحدة هى الخير للإنسان والإنسانية، ومن أجل ذلك كانت الزكاة فريضة فى أموال الأغنياء لبر ومساعدة وعون الفقراء، وفى المصارف الشرعية التى تعود على المجتمع بعامة بالخير والنماء والازدهار.. يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ٦٠).

هذه المصارف الثمانية، هى تعبير عن الوفاء للخالق جل شأنه ولمخلوقاته، ودليل على صدق الإنسان مع ربه ونفسه ومع الإنسانية.. هى إذن فريضة تعبدية، تجبر الرتوق، وتضيق الفوارق، وتنمى إحساس الإنسان بأن الواحد للكل، والكل فى واحد، وتفتح بذلك آفاقا للتحاب والتواد والتساند والتعاطف والتواصل والتكافل، مما يحفظ توازن المجتمع ويكفل له الرضا والأمان.

لقد اتخذ الأستاذ كهلان بن نبهان، المستشار الشرعى بإفتاء سلطنة عمان - اتخذ من" الزكاة " نموذجا للتعبير عن الدور الرشيد للمال فى تحقيق الأمن فى المجتمع الإسلامى، وكيف أن هذا الدور يتضح للمتأمل فى " فقه المال" فى الإسلام، وما يحيط به من قواعد تضبط التملك والتعاملات، والكسب والإنفاق، وفى إطار وظيفة اجتماعية لا تخطئها عين المتأمل. هذه الوظيفة تنطلق من مبادئ وقيم الإسلام، وتستهدف رعاية الإنسان، وكفالة حقوقه ومصالحه، وتحقيق أمانه وأمنه، حالة كون توظيف الثروة لخدمة المجتمع - من أكبر مقاصد الشريعة الإسلامية فى كفالة سلامة الأفراد والأمة، ورعاية الوجدان الخاص مع الوجـــدان العام، ورعاية البر والإحسان لمن قعدت به إمكانياته أو أبطأ به جهده أو منعته عوائق. فى الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل المجتمع، يستشهد الأستاذ الباحث بقوله تبارك وتعالى: " وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (البقرة: ١٩٥)، وعن أثر الزكاة فى كفالة وتحقيق الأمن المجتمعى - يستشهد بما ورد فى سورة التوبة عن أثر الزكاة فى بسط الأمن ونشر سبل الأمان والطمأنينة فى المجتمع، يقول جل شأنه: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (التوبة: ١٠٣).. بفهم هذه السنن، والالتزام بمقاصدها، يأمن الفرد ويأمن المجموع فى باحة المجتمع الإسلامى.. مجتمع الهداية والتكافل الذى فيه يحس كل فرد من أفراده، ويؤمن عن عقيدة وإخلاص، بأن عطاءه للمجتمع مردود إليه عائد بخيره عليه.

العدالة التوزيعية والتعويضية والعدالة الاجتماعية

لا أحب أن أنتهى من عرض البحوث المقدمة للمؤتمر البحثى عن محور العدل الاجتماعى ودوره فى تحقيق الأمن المجتمعى فى الإسلام - دون أن أعرض لدراسة بحثية قدمها الأستاذ الدكتور محمد أحمد مصطفى الكزنى، رئيس اتحاد علماء الإسلام فى كردستان، والوزير السابق للأوقاف بإقليم كردستان العراق. السبب أن هذه الدراسة انفردت بتفصيل الحديث عن مفهوم العدالة، فتناولت العدالة التوزيعية والعدالة التعويضية، والعدالة الاجتماعية.

العدالة فى المصطلح الذى عرضت له الدراسة البحثية نوعان: عدالة فى الفرد، وعدالة الدولة أو المجتمع، وكلاهما متضافران فى تحقيق العدل الذى يلتئم فيه عدل الأفراد مع عدل المجتمع، ولعل أفضل تعريفات العدل التى استعرضتها الدراسة، هو تعريف الحافظ ابن حجر العسقلانى، الذى عرف العادل بأنه " الذى يتبع أمر الله بوضع كل شىء فى موضعه من غير إفراط ولا تفريط ".

هذه الغاية تستلزم لتحقيق عدل الأفراد والمجتمع، عدة عناصر أولها وجود شريعة عادلة، وثانيها أن يفهم المجتمع هذه الشريعة، والثالث أن يعتقد المجتمع - عن اقتناع - أن سعادته فى تطبيق هذه الشريعة واتخاذها معيارا وأساسا للعمل بمقتضاها.. ووجود الشريعة العادلة هو قوام الإسلام وركنه الركين فى الكتاب والسنة.. إنصافا للحق والناس، ودرءاً للاستبداد والطغيان والمظالم.. هذه الشريعة القيمة العادلة وصفها القرآن الحكيم فقال: " إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٩)، وقال تبارك وتعالى: " وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

السَّبِيلَ" (الأحزاب: ٤).. وورد في الذكر الحكيم على لسان الجن: " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا " (الجن: ١، ٢).. وأخبر القرآن المجيد أن الحق جل شأنه يأمر بالعدل والإحسان، فجاء في سورة النحل: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ " (النحل: ٩٠) وجاء في سورة النساء: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ " (النساء: ٥٨).. والآيات التي نوهت بالعدل وأمرت به ودعت إليه، عديدة في سور القرآن الكريم مما لا يتسع المجال لسرده. ولأن النصوص لا تطبق بذاتها، وإنما ينهض عليها البشر، فإن هذا النهوض يستلزم من المجتمع فهم الشريعة وأحكامها، والإلمام بمعانيها وغاياتها، لأن هذا الفهم المشترك هو قوام التطبيق الذي يتسق ويتغيا تحقيق المقاصد القرآنية في صلاح أمر الناس وأمر المجتمع.

والقارئ للقرآن الحكيم، المتأمل في آياته ومعانيه، يجد بيانا شافيا تكررت فيه الآيات الكريمة في إنزال العدل منزلة ملحوظة من التعظيم والإجلال والدعوة إلى الالتزام به.. يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ " (الأنبياء: ٤٧).. ويقول: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْت بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " (النحل: ٧٦).. وأمر جل شأنه بالعدل في آيات كثيرة منها قوله عز من قائل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة: ٨).. وتكرر في الذكر الحكيم قوله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (المائدة: ٤٢، والحجرات: ٩ والممتحنة: ٨).. ونهى جل شأنه عن الظلم والعدوان فقال: " وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " (آل عمران: ٥٧).. وتكرر ذلك في

الآية (١٤٠) من سورة آل عمران، والآية (٤٠) من سورة الشورى.. ومن مثل هذا النهى، ما ورد بآيات سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الأعراف، فيقول الحكم العدل: " إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (البقرة: ١٩٠ والمائدة: ٨٧ والأعراف: ٥٥).

وفى الحديث القدسى، فيما رواه أبو ذر الغفارى عن النبى - صلى الله عليه وسلم، أن ربه عز وجل قال: " يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم حراما فلا تظالموا... ".. وعن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يا معشر القراء (أى العلماء) استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا، فإن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالاً بعيداً. ".. إن استقمتم - أى عدلتم - فقد سبقتم، وإن لم تستقيموا - أى لم تعدلوا - فقد ضللتم !. وفى الحديث الشريف، أن الإمام العادل ضمن السبعة الذين يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله.. وعنه صلى الله عليه وسلم: " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وما وُلّوا ".

وعن أنواع العدالة، تورد الدراسة البحثية أنها ثلاثة: (١) عدالة فى حقوق الأفراد بعضهم تجاه بعض، وهذه هى العدالة التعويضية أو التبادلية (٢) وعدالة فى حقوق الأفراد على المجتمع أو الدولة، وهذه هى العدالة التوزيعية (٣) وعدالة فى حقوق الدولة أو المجتمع علـــى أفراده، وهذه هى العدالة الاجتماعية.

والعدل التعويضى، هو الذى يضبط علاقات الأفراد فيما بينهم من معاملات وصلات وتعاملات وأعمال ومشاركات وتعاقدات وتصرفات.. انضباط هذه العلاقات المتنوعة أساسه العدل الذى روحه المساواة. هذه المساواة ليست مساواة حسابية أو عددية وإنما هى مساواة نسبية، فلا يستوى النابه مع البليد، أو النشط مع الخامل، فالتسوية الحقة العادلة لا تساوى مساواة مطلقة بين غير المتساوين، فلا تعادل الجاهل بالعالم، ولا القاعد بالنشط، وهكذا.. هذه العدالة

النسبية لا تخل بالناحية الإنسانية التى تجبر الضعف والفقر والانكسار والحاجة. فلا تعارض بين العدالة بمفهومها الذى يقدر ويضع كل شيء فى موضعه، ويعادل كل شخص بما يقدمه، وبين العطاء الإنسانى الذى له أدواته العديدة التى تعين كل من يحتاج إلى عون فى أزمة أو ضعف أو مرض أو حاجة. فى هذه العدالة التعويضية أو التبادلية لا يهدف العادل إلى ظلم الظالم الذى ظلم، وإنما يهدف إلى إنصاف المظلوم الذى وقع عليه الظلم.. وهذا هو الفارق بين عدالة تبغى الإصلاح والإنصاف، وبين إشفاء الغليل أو الثأر أو الانتقام.

والعدالة التوزيعية تحاجى على حقوق الأفراد قبل المجتمع أو الدولة، وتكفل رعاية حقوقهم قبل السلطة، فى إطار كفالة الحقوق والمصالح. فهذه الحقوق فى ضمان الدولة، هى المسئولة عن كفالتها لأصحابها بلا عنت ولا إعنات، وقد قال الفقهاء: " تصرف الإمام من الرعية منوط بالمصلحة "، وقال الإمام الشافعى: " منزلة الإمام من الرعية منزلة الولى من اليتيم ".. واختيار اليتيم بالذات للاستشهاد بواجب الوفاء بحقوقه، هو استشهاد حكيم بالغ الرشد والفهم لواجب الراعى قبل رعيته. وقد أُثر عن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنـــه قال: "إنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى بمنزلة ولىّ اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، فإن استغنيت استعففت ".. ومن فروع هذه المساواة العادلة، أن قسمة الزكاة محرم فيها التفضيل مـــع تساوى الحاجات، ففيها يجب التعميم مع التسوية، وقد قال العز بن عبد السلام: " يتصرف الولاة ونوابهم بما ذكرناه من التصرف مما هو الأصلح للمولى عليه درءاً للضرر والفساد، وجلبا للنفع والرشاد.. ولا يتخيرون فى التصرف تخيرهم فى حقوق أنفسهم، لقوله تعالى: " وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الأنعام: ١٥٢).. فإذا كان هذا فى حقوق اليتامى فأولى أن يثبت فى حقوق عامة المسلمين فيما يتصرف فيه الأئمة من الأموال العامة، لأن اعتناء الشرع بالمصالح العامة أوفر وأكمل من اعتنائه بالمصالح الخاصة ".

وعليه فإن تصرفات أصحاب الولايات العامة، تنطبق عليهم أحكام تصرفات الولى عند القائلين: بأنهم يتصرفون بالولاية. وتنطبق عليهم أحكام الوكالة عند القائلين: بأنهم وكلاء عن أمتهم.

فى هذه العدالة التوزيعية، تكمن أسباب تماسك المجتمع وقوته المستمدة من تحقيق العدالة فى توزيع الثروة والوظائف والأعمال وسائر المزايا، وعلى الدولة أن تعدل فى هذه القسمة ومعيار العدل هنا هو المساواة النسبية " برعاية الوضع الخاص لكل شخص وظروفه المختلفة ومن حيث الحاجة والتناسب فى الصفات والمؤهلات والقدرات ونوعية العمل، مع رعاية الجدارة التى يدل عليها قول القرآن المجيد:

" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ " (الزمر: ٩).

أما العدالة الاجتماعية، فهى تعنى بواجبات الأفراد قبل المجتمع، وهى كذلك تقوم على المساواة النسبية فيما يتكفل به كل فرد أمام المجتمع.. مثلها فى ذلك مثل العدل التوزيعى.. فما يقدمه الشخص لمجتمعه رهين بقدراته التى تختلف من شخص لآخر حسب المؤهل والخبرة والجدارة، والقيام بذلك واجب لا يجوز للفرد أن يتحلل منه وفاء بحق المجموع، فما يقدمه الفرد إلى مجتمعه مردود إليه فى صورة المرافق والخدمات التى تقدم إليه أو تعود عليه، وفى صورة الأمن والدفاع الذى يحفظه المجموع للوطن ولأبنائه، وفى صورة إغاثة الملهوف، وعلاج المريض، وتيسير الحياة، وكفالة الأمن والاستقرار.. وقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: " خيركم من يُرجى خيره ويؤمن شره ".

شيوع العدل يرسخ عادة الالتزام به والصدور عنه فى كل تصرف، وقد أورد البحث من حديث رسول القرآن عليه السلام قوله: " لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله،

حتى يولد فى الجور من لا يعرف إلا غيره ".. ومادام العدل هو الفطرة السليمة للإنسان العاقل، وواجب شرعى فى الإسلام، فإنه يغلب على الجور فى النهاية.

بقى أن نشير تعقيبا على هذه الدراسة، وكيما تتضح صلتها بكفالة الأمن المجتمعى فى الإسلام، أن نشير إلى أن شيوع العدالة ينشر الإحساس بالرضا والاقتناع بأن الفرد مكفول الحق والرعاية فى المجتمع، من أفراده ومن مجاميعه، وأن شيوع هذه العدالة يوفر له آماله وحقوقه بغير مصارعة ولا منازعة، وهذا الإحساس العام هو قوام الأمن والأمان، وغيابه يؤدى إلى النقيض بانتشار السخط وعدم الرضا بضياع المساواة وضياع الحقوق بتواطؤ المجتمع على نصره الأقوياء القادرين الأغنياء على حساب الضعاف والفقراء.. والرضوخ لمثل هذه الأوضاع هو رضوخ اضطرارى ساخط تتراكم به فى النفوس مشاعر الغضب ودوافع الاعتراض والمقاومة مما يتزعزع به أمن وأمان المجتمع. حاصل ذلك أن الأمن ليس مجرد وسيلة تداركية تقمع الخطأ وتسائل عنه لدى وقوعه أو بعد حصوله، وإنما وسيلة استباقية تقيم الأسس التى تصلح عليها أحوال الناس وتطمئن النفوس وترضى بقسمتها ما دامت تعبر عن حق يعتنقه الأفراد والمجتمع ويصدرون عنه فى قراراتهم وتصرفاتهم فينال كل منهم حقه بلا تفريط ولا تحيف.

المحور الثالث

الحقوق الاجتماعية

دار المحور الثالث فى المؤتمر البحثى لاستقصاء مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام - دار حول الحقوق الاجتماعية، فكتب الدكتور محمد نبيل غنايم عن " حق التعلم "، وكتب الأستاذ أفلح بن أحمد الخليلى من سلطنة عمان حول" حق العلاج "، وكتب الدكتور أحمد محمد هليل من الأردن - حول العدالة الاجتماعية فى الإسلام، وكتب الدكتور محمد فؤاد البرازى - من الدانمرك حول حقوق الإنسان ودورها، وكتب الدكتور إبراهيم محمد العنانى حول الحق فى مسكن ومستوى معيشى مناسب، وكتب الأستاذ إسحق تراورى من مالى عن الحقوق الاجتماعية.

والحديث عن اهتمام الإسلام بالعلم والتعليم حديث متكرر، لا يكاد يخلو منه خطاب أو كتاب فى إيجابيات ومآثر الإسلام. من الطبيعى أن يتحدث الدكتور غنايم عن معنى الحق فى التعلم وأساسه وأساس وجوبه وحكمه وفضله وآداب المعلم والمتعلم، ولكن الفرض أن يتحدث عن مدى ونوع إسهام هذا الحق فى توفير مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام، وهو ما شملته الصفحة الأخيرة من المقال تحت عنوان: " حق التعلم وحقوق الإنسان والأمن الاجتماعى " فيورد الكاتب أن الإسلام أول تشريع يثبت هذا الحق ويجعله فرضا وتكليفا. ثم ماذا ؟! يورد الكاتب أن الدكتور حسين السمرة يذكر " أن حقوق الإنسان الأساسية وحرياته العامة فى الإسلام جزء من الدين، وفرض فرضه الله له، وجاء فى البيان العالمى لحقوق الإنسان فى الإسلام، وليست هذه

الحقوق منحة مـــن الحاكم... إلخ. ولم أجد فيما تلا ذلك ما يجيب عن السؤال المحز المفترض أن يكون غاية البحث، وهو كيف يسهم العلم أو حق التعلم فى توفير مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام ؟. واعتقادى أن هذه المساهمة تأتى أولا من أن الإسلام وقد اعتنق توفير العلم كحق واجب الكفالة والأداء، قد وضع أرضية قوامها إحساس جميع المواطنين أنهم فى نول هذا الحق سواء، لا فرق بين غنى وفقير، أو حاكم ومحكوم، وأن هذه المساواة فى كفالة التعليم التى أطلق عليها طه حسين من ستين عاما أنها كالماء والهواء، هى البذرة الأولى فى كفالة مقومات الأمن المجتمعى من هذه الزاوية. فإذا كان ذلك، فإن التعليم يعطى القاعدة المعلوماتية التى يتحقق بها فهم دور الفرد ومساهمته فى المجتمع، وهذه القاعدة المعرفية والإحاطة بطبيعة المجتمعات وما تستلزمه إدارتها وشئونها من علم وثقافة وعمل وإنتاج - هى الحصاد الحقيقى الذى يعطيه التعليم للمتعلم، ويوفر له به أن يكون عنصرا فاهما واعيا فى المجتمع يكفل بعمله وعلمه ارتقاءه واستقامة شئونه وأحواله، وهذا يصب فى أمن وأمان المجتمع الذى يسهم فى تحقيقه الوعى والفهم والتنوير وكلها من مفرزات وحصاد التعليم. فبانتشار التعليم والتعلم والعلم تتقلص وتتناقص ثم تتلاشى فرص التطرف والغلو والتصلب والعنف مما ينعكس بالإيجاب على أمن وأمان المجتمع. ولو صرف الأستاذ الباحث جهوده فى هذه الجوانب، ولم يقتصر على ترديد ما امتلأت به الخطب والكتيبات، لربما قدم ما يضيف جديدا ولازما إلى مقاصد المؤتمر فى بحثه عن مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام.

وربما كان حديث الأستاذ أفلح الخليلى من سلطنة عمان عن " حق العلاج " - أكثر تنبها لربط موضوع البحث بغايته، فهو إذ بدأ بعلاقة حق الصحة بمقاصد الشريعة، فإنه فطن إلى أن حق العلاج الشامل للنفس والعقل والنسل - يشكل قاعدة أساسية فى بناء الفرد ونفعه للمجتمع لافتا إلى أن الوقاية والعلاج حق لكل مواطن على المجتمع، سواء حق الصحيح فى الوقاية، أو حق المريض فى العلاج، وأن وفاء المجتمع بلوازم ومقتضيات هذا الحق هى التى

تكفل صحة وسلامة المواطن فى بدنه ونفسه وعقله، وهذا الإنسان الصحيح هو اللبنة الحقيقية لبناء المجتمع بعناصره ومقوماته ومنها أمان المجتمع. يتضح هذا المعنى من استظهار الباحث لعوامل التكافل والتساند فى المجتمع مثل تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر على العضو المريض أو العليل أو المصاب. الأمن المجتمعى هنا، قوامه ما يقدمه المجتمع لكفاية حق أفراده فى الوقاية والتطبيب والعلاج، ومعاونته المرضى وتطبيب العليل وكفالة الصحة ليكون هؤلاء لبنات المجتمع الذى يصح ويأمن بصحة وأمان أعضائه.

عن دور الوقف فى مجال التعليم، كتب الأستاذ أحمد محمد هليل من الأردن، لافتا إلى أن دور الوقف فى سبيل العلم مقصود شرعا، فمن عناصره وريعه توفر الأماكن والإمكانيات اللازمة للتعليم، وهى فى حماية تؤمنها من أى إيقاف أو إلغاء، لأن الأصل عدم جواز إلغاء الوقف المخصص للتعليم، وحول هذا الدور استعرض الكاتب الوقف على مؤسسات التعليم وتطور المؤسسات التعليمية الوقفية، وأحكام الوقف الفقهية المتعلقة بالتعليم، والمزايا التعليمية فى المدارس الوقفية.

استقصى الكاتب المزايا العلمية لهذا النوع من الأوقاف، سواء فى استقلالها عن السياسة ،أو حرية الدراسة والتعليم، أو المزايا المعيشية أو مرافق المدارس وخدماتها، والدور المساند للأبحاث، والكتب والمكتبات والطباعة والنشر، والجامعات والمدارس، وكيف تزايدت الاهتمامات بانطلاق الأوقاف العصرية إلى مجال التعليم، وإيجاد هيئة متخصصة تقوم على تفعيل الوقف فى البحث العلمى، بما يساهم مساهمة واضحة وفعالة فى تحقيق أمن وأمان المجتمع.

ومن البحوث اللافتة التى قدمت فـــى هــذا المحور، مبحث عن" العدالة الاجتماعية فى الإسلام ".كتبه آية الله احمد الجنتى رئيس مجلس صيانة الدستور فى إيران، استهله بأن العدالة الاجتماعية هى الحلم المنشود للإنسانية منذ آلاف السنين، قاومته نوازع وأثرات وصراعات ضجت بالمظالم، وكانت

رسالات الأنبياء محاولات متتالية للتغيير والإصلاح ورفع الظلم وإقامة العدل، وفى ذلك يقـول القـرآن المجيد:" وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ" (القصص: ٥)..

جاء الإسلام ثورة هادية ضد الظلم والطغيان، رافعاً راية المساواة.. كلكم لآدم وآدم من تراب، فيقول القرآن الحكيم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: ١٣).. من اللافت أنه مع تسليم الإسلام بوجود تفاوت فى العلم والمعرفة وفى الرزق والملكات وفى المكانات والدرجات، إلاّ أنه لم يقر أبدا منطق " الطبقات ".. فالمجاهدون لهم على القاعدين" درجة "، والله يرفع الذين أوتوا العلم " درجات"، ولكنك لا ترى لفظ " الطبقة " و " الطبقات " فى الذكر الحكيم أو السنة النبوية.. دعوة الإسلام غايتها سعادة الإنسان على منهج ربانى يقوم على العدل بين الناس.. يقول عزّ وجلّ" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" (الحديد: ٢٥).

التفاوت والمظالم الاجتماعية آفة ناشبة بالأثرة وحب الذات، سبيل اقتلاعها هو توفير " العدالة الاجتماعية ".. وحكمة الإسلام أنها تجاوزت الصيغ أو النظريات التوفيقية أو التلفيقية، وهدفت فى صدق وعزم مع اتخاذ الوسائل لتحقيق عدالة اجتماعية حقيقية.. أساسها العدل والكرامة والعزة للإنسان.. لكل إنسان أن ينال حقه من الحياة فى المجتمع بكرامة لا تحيز للون أو لعرق أو لعصبية، وإنما توفر وتتيح فرصا كاملة للتعامل والمشاركة فى تنافس قوامه الصدق والإخلاص والعمل الذى هو مقياس التفاضل مع التقوى. رأينا فى سورة الحجرات كيف أن التفاضل بالتقوى، ونرى أيضا فى القرآن المجيد أن التفاضل بالعلم والعمل.. " وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" (التوبة: ١٠٥).. و " هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" (الزمر: ٩).. أجل هنا فوارق ولكن مردها إلى المبادئ والوعى والإصلاح وصدق العمل والعطاء.. نرى فى سورة النحل قول الحكيم الخبير سبحانه وتعالى:

" وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (النحل: ٧٦).. وفي سورة يونس: " قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ " (يونس: ٣٥)..

ولكن هذه الفوارق لا ترد إلى " طبقية " أو تهدر العدالة الاجتماعية الواجبة بين الناس.. وقد جاء في الحديث القدسي أن اللـه تعالى يقول:" افترضت على عبادى عشر فرائض إذا عرفوها أمكنتهم ملكوتى وأبحتهم جنتى، أولها معرفتى.. والعاشرة أن يكون هو وأخوه فى الدنيا سواء ".

الإسلام وإن أقر بوجود التفاوت، كمثل التفاوت في التقوى والإخلاص، فإنه يبشر أصحابه بحسن الثواب، ولكنه لم يجعله سبيلا للتفاضل في الدنيا بمنطق الطبقات.. وقد أثر عن الإمام على أمير المؤمنين قوله: " من استقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، وآمن بنبينا وشهد شهادتنا ودخل في ديننا أجرينا عليه حكم القرآن وحدود الإسلام، وليس لأحد على أحد فضل إلاّ بالتقوى.. لم يجعل الله - تبارك وتعالى - الدنيا للمتقين ثوابا وما عند الله خير للأبرار ".

من أركان هذه العدالة الاجتماعية - المساواة أمام القانون وكافة الأمور الحقوقية، ومحاربة الطبقية وكافة صور التمييز العرقي أو العنصري.. والعدالة لا تميز في الإسلام بين غنى وفقير ،أو بين حاكم ومحكوم، أو بين قوى وضعيف، والمواقف الإسلامية التي ساوت في مجلس القضاء بين الناس مواقف عديدة ومأثورة عن الصحابة والتابعين والصالحين، وذلك تجسيد لأمر الحق جلّ وعلا: " يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة: ٨)..

ولم يقصر الإسلام تطبيق العدالة الاجتماعية على الأموال، بل راعاها فى كل ما يتعلق بحق وكرامة الإنسان، فحرص على تحرير العبيد وتحرير المرأة، ومن يتأمل بإمعان سياسته فى هذا الباب يدرك أنه سبق الشرائع إلى سد أبواب الرق وفتح منافذ العتق لينتهى إلى إزالة الرق وتحرير العبيد، وإن موقفه من المرأة قد انتقل بها من دائرة المتاع والإنتفاع لتكون السكن والعشرة ولها ذمتها وإرادتها وحقوقها.. اتسعت تطبيقات العدالة الاجتماعية فى الإسلام لتنبذ كل صور العنصرية وتتغيا مفهوما عاما يشمل كل نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية. لم تقتصر على إشباع الحاجات الغريزية، بل تجاوزتها إلى العدالة الحقوقية بإفساح الفرص المتكافئة لجميع الأفراد، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

هى إذن عدالة إنسانية، ومساواة إنسانية، لم تعل من شأن أحد لأنه سليل ملوك أو أمراء.. ولم تجعل لأحد دما أزرق يتميز به على الناس، أو صاحب حسب ونسب يتباهى به ويعلو.. الكل متساوون فى الحقوق والواجبات أمام القانون.. لا فرق بين أسود وأبيض وأحمر وأصفـر.. علا فى الإسلام نجم سلمان الفارسى الأسود، وبلال الحبشى، وصهيب الرومى، والمقداد الأسود.. لايتميز أحد - إن تميز - إلاّ بعلمه وعمله وعطائه وإخلاصه وورعه وتقواه.. ولكنه لا يتميز على الناس ولا يفضلهم ولا ينال وبرة من حقوقهم.

يقرن الباحث فى تفطن بين" العدالة الاجتماعية " والتكافل الاجتماعى .. فالتكافل لون من ألوان مسئولية المجتمع فى الإسلام إزاء أفراده، به يسد ما عساه يحدث من فوارق فيجبرها ويسندها بروح التكافل التى تجعل المجموع معينا للفرد، والغنى فى خدمة الفقراء، والقوة لجبر الضعف والضعفاء، حتى كان النبى صلى الله عليـــه وسلـــم يقول:" الضعيف أمير الركب ".. وقد أثر عن الإمام على رضى الله عنه قوله: " إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلاّ بما منعه غنى، والله تعالى سائلهم عن ذلك ".. وفى الحديث النبوى الشريف: " المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا

يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كروب يوم القيامة، ومن ســـتر مسلما ستره الله يـــوم القيامة ".

يستخلص الباحث أن التكافل الاجتماعى فى الإسلام، يقوم على محاور أربعة: (١) توسيع مفهوم ملكية الله تعالى للمال. (٢) وجوب إنفاق الأغنياء على الفقراء. (٣) الحث على الإنفاق والتبشير بأجره وثوابه. (٤) بث روح الأخوة والإيثار بين أفراد المجتمع.

لا يستخلص الباحث هذه المحاور من المطلق، وإنما يردها إلى نصوصها ومواقفها وشواهدها، ليقيم الدليل على أن " العدالة الاجتماعية " و" التكافل الاجتماعى " جناحان متقابلان فى الإسلام، يتعاضدان فى بث الشعور بالعدل والمساواة والطمأنينة والأمان وسط مجتمع اتسعت مفاهيمه لتربط بين الناس بروح العدل والتكافل والإخاء، وتحقق له الأمان الذى يزدهر به المجتمع ويمضى الفرد آمنا على نفسه فى حياته وبدنه وعرضه وعمله ورزقه.

حقـــوق الإنســـان

حول حقوق الإنسان ودورها فى تحقيق أمن المجتمعات، تقدم الأستاذ الدكتور محمد فؤاد البرازى ببحث إلى المؤتمر ينطوى على إضافة من ناحيتين، الأولى أن الباحث رئيس الرابطة الإسلامية فى الدانمارك التى جرت فيها حملات الرسوم الكاريكاتورية المسيئة إلى نبى الإسلام - صلى الله عليه وسلم، وكان له دور كبير فى التصدى لهذه الإساءات ودعوة الدول والمنظمات الإسلامية للوقوف فى وجهها، وألمّ خلال مواجهته هذه الحملات بعناصر عديدة تعطى رؤيته لحقوق الإنسان ودورها فى تحقيق أمن المجتمعات بُعداً أعمق، والإضافة الثانية فضلا عن إيجابية المساهمة الآتية من دولة بشمال أوروربا، أن البحث تضمن إضافات تكمل عناصر المحور الثالث من محاور المؤتمر.

يستشهد الباحث بالآية (١٣) من سورة الحجرات، على سبق الإسلام لكافة الديانات والشرائع والقوانين والأعراف فى تكريم ورعاية حقوق الإنسان، وكفالة العدل بين البشر بلا تفرقة بسبب لون أو عرق أو جنس.. فالآية جعلت التفاضل بين الأمم والشعوب والقبائل بالتقوى والعمل الصالح، لا بالمال أو الأعراق أو الأحساب والأنساب.

يستطرد الباحث فيورد مناسبة نزول الآية (١١) من سورة المجادلـــة، حين أغضب ثابت بن قيس أن واحداً من الناس لم يفسح له مكاناً فى المجلس فذكره بشىء من الامتعاض، فقال له رسول القرآن - صلى الله عليه وسلم:" انظر فى وجوه القـــوم، فنظر.. فقال له الرسول: ما رأيت ؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال له عليه الصلاة والسلام: فإنك لا تفضلهم إلاّ بالتقوى ".

ويتوقف الباحث عند كلمات رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فى خطبة الوداع، وما تضمنته من رعاية لحقوق الإنسان، تجلت بقوة فى قوله عليه السلام: " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا ".

فالإسلام يوفر لمجتمعه حماية من الاعتداء على الأنفس والأموال والأغراض، حماية شاملة من كل أذى أو عدوان، وفى الوقت الذى كان فيه العالم يتغوّل على حقوق المرأة ويحسبها من قبيل المتاع ولا يقيم لها وزناً ولا حساباً، كفل الإسلام كافة حقوقها، وجعل لها أهلية قانونية مستقلة، فقرانها بيدها لا تُجبر عليه، ولها ذمّتها المالية الخاصة فلها حق التملك والبيع والشراء، بينما كان القانون الإنجليزى يبيح للرجل حتى عام ١٨٠٥ - أن يبيع زوجته بما لا يقل عن ستة بنسات !!!، ولم يعط القانون السويسرى للمرأة حق الانتخاب والترشيح حتى بداية السبعينيات !

ويلاحظ الباحث أن كافة تلك الحقوق التى جاء بها الإسلام ورعـاها، لم يقصرها على المسلمين، وإنما جعلها للناس كافة.. للمسلم وغير المسلم، للذكر والأنثى، للأبيض والأسود والأحمر والأصفر، بلا تمييز.. فالعدل فى القرآن للناس كافة، فتقول الآية الكريمة: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ " (النحل: ٩٠).. لا يميز هذا العدل بين أحد وآخر، ولا بين المسلم وغير المسلم، ولا بين القوى والضعيف، ولا بين الغنى والفقير.. ويعقب الباحث على ذلك بقول رسول المرحمة - صلى الله عليه وسلم: من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة" !

فى تتبع رعاية حقوق الإنسان فى المجتمع الإسلامى، ينتقى الباحث مواقف شاهدة على ذلك فى كل العهود.. ويورد فيما يورد كيف أمر عمر ابن الخطاب بصرف القوت لمن أصابهم الجذام من أهل الذمّة فى الشام، وما تضمنته معاهدة خالد بن الوليد مع أهل الحيرة من مساعدة للضعفاء وإعفائهم من الضرائب وبذل المعونة لمرضاهم.. وكيف أمر عمر بن الخطاب نائبه فى

البصرة بإعطاء " راتب " من بيت المال لكل من كبرت سنه من أهل الذمّة، أو ضعفت قوته أو لا عمـل أو لا دخـل لـه.

ما نراه الآن من اهتمام بحقوق العمال، سبق إليه الإسلام، وإليه يشير الباحث فى تقصيه لحقوق العامل فى الأجر وفى حسن المعاملة وفى عدم تكليفه بما يعنته، وكيف كفل الإسلام حقوق عقد العمل فيما كفله من احترام للعقود بعامة، بقوله عز وجل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ" (المائدة: ١)، بينما وصية الرسول - صلى الله عليـه وسلم: " أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه ".

وربما لم يلتفت باحثون إلى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجه أساسى للحق فى التعبير عن الرأى، وهو من أهم حقوق الإنسان فى العالم المعاصر، بينما نرى القرآن المجيد يقول من أربعة عشر قـرنا:" وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (آل عمران: ١٠٤).

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ممارسة لحرية الرأى والتعبير، فلا مجال لممارسة ذلك إلاّ بإقرار حق الرأى والتعبير، كذلك مبدأ الشورى الذى ورد بالقرآن الحكيم وبسنة الرسول عليه السلام وأعماله وتقريراته.

ففى القرآن المجيد: " وشاورهم فى الأمر "، وفـى وصف المؤمنين: " وأمرهم شورى بينهم ".. ورسول القرآن - عليه السلام - هو الذى قال لحباب بن المنذر تقديراً لرأيه فى النزول على موضع الماء فى بـدر:" لقد أشرت بالرأى " .. وأخذ بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق حين حاصر الكفار - المدينة فى غزوة الخندق، ونزل على رأى صحابته فى أُحد وفى صُلح الحُديبية، ولا يفوت الباحث موقف عمر بن الخطاب مع السيدة التى كانت قد نزلت بشأنها سورة المجادلة، فوقف يسمع لها فى صبر، ويعطيها حقها فى الاعتراض والنقد، ويقر بأنها أصابت فيقول: " أصابت امرأة وأخطأ عمر ".

يستطيع المتأمل أن يرى ملامح حقوق الإنسان فيما قررته وصايا رسوله ﷺ من أهمية أن يكون رأى الفرد نابعاً منه، وفى تحذيره من التبعية فى مجاراة الخطأ والمخطئين، فيرد فى حديثه الشريف - صلى الله عليه وسلم: " لا يكن أحدكم إمّعة، يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ".

والإمّعة الذى ينهى الرسول عليه السلام عن التشبه به، هو المنقاد الذى لا رأى له، فمثل هذا عالة على نفسه وعلى المجتمع، لأنه فى الواقع لا يفيده بشىء، وقد رعى الإسلام حرية الرأى وحـق التعبير والنقد، فى وصية محمدية بالغة الدلالة، فيها يقـول - علـيه الصلاة والسلام: " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر تنهاه عن ظلمه ".

الحق فى التفكير أعطاه القرآن الحكيم نصا ولفظا ودلالة، وأوصى به وحض عليه حتى فى أمور العقيدة والتبعة والتكليف، ومع تنويهه بالعقل لم يصادر فهم الإنسان ولا حقه فى التعبير، ففى الوقت الذى فيه " لا إكراه فى الدين "، نرى من واجب المؤمن إذا رأى منكراً أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان.

من أدب الدعوة والتعبير، ما يورده الباحث رجوعاً إلى القرآن والسنّة، ففى القرآن الحكيم يقول عز من قائل: " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (النحل: ١٢٥).. ويقول تعالت حكمته:" يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا * إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً" (الأحزاب: ٧١، ٧٢).

ولم يكن من الممكن للباحث القادم من الدانمارك، أن ينهى بحثه الشيق دون إشارة إلى الرسوم المسيئة، فيسجل ما أجمع عليه المسلمون وكثير من غير المسلمين - من أنه إساءة متعمدة للإسلام ونبيه الكريم ولجميع المسلمين، وأن هذه الرسوم تشكل خرقاً للمبادئ والمواثيق الإنسانية وللمبادئ التى يقوم عليها النظام الدولى فى إشاعة السلْم والأمن الدوليين ويخلّ بالقيم التى قامت عليها الأعراف الدولية، وما تراضى عليه العالم من نبذ الإساءة إلى الأديان والرسـل، ووجـوب احترامهم وتوقيرهم.

كان ختام البحث، رسالة أو دعوة أطلقها الباحث إلى المجتمعين فى هذا المؤتمر الموسع، أهاب بهم فيها التصدى لهذه الإساءات المتعمدة، وإصدار بيان يدينها، ويدعو الأمم المتحدة إلى إصدار قرار يجرّم الإساءة إلى أى دين من الأديان أو الأنبياء والرسل أو مقدس من المقدسات، ويعاقب من يسىء إلى شىء من ذلك بأى شكل من الأشكال، لتجنيب العالم مخاطر الصدام إذا تفشت أمثال هذه الإساءات !

الحقوق الاجتماعيـة

توقف الأستاذ الدكتور إبراهيم العنانى، أستاذ القانون الدولى العام والعميد السابق لكلية الحقوق بجامعة عين شمس - توقف فى بحثه ضمن المحور الثالث (الحقوق الاجتماعية) للأمن المجتمعى فى الإسلام - عند " الحق فى مسكن ومستوى معيشى مناسب ". وهذا تفريع محمود يخرج من الكليات إلى الفرعيات والتفاصيل التى فرغ إليها بعد مقدمة فى ارتباط حقوق الإنسان برسالة الإسلام، الذى عنى بكرامة الإنسان واحترام آدميته بما يصلح لكل زمان ومكان.

أما عن حق السكن، فهو فى المفهوم العالمى، ينصرف إلى السكن المناسب للمأوى بقدر مناسب من الخصوصية ومساحة كافية وأمن مناسب وإضاءة وتهوية مناسبتين ومرافق أساسية تضمن المعيشة الكريمة والصحة بتكلفة معقولة. فهل عنى الإسلام بحق السكن ؟

لقد حفظ الإسلام للإنسان حق السكن، وكفل له الأمن فى مسكنه لأنه مأواه ومستقر راحته وأمنه واستقراره، وضمن هذا الحق لكل رعايا المجتمع الإسلامى بغير تفرقة أو تمييز، وقرر لهذا السكن الخصوصية والحرمة ووضع التقاليد الواجبة لحفظهما، فلا يدخل أحدٌ سكن آخر بغير إذنه، ولا يدخله فى غيابه، وإن لم يؤذن له فعليه بالرجوع احتراماً لخصوصية وحرمة المسكن، فجاء فى سورة النور: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (النور: ٢٧، ٢٨).

وفي إيضاح هذا التقليد الواجب الاحترام والرعاية، قال رسول الله ﷺ:" إذا استأذن أحدكم ثلاث مرات فلم يؤذن له وإلاّ فليرجع ".

هذه السنة الرفيعة، توضح أن الإسلام قد خص السكن برعاية خاصة تحفظ له حرمته وتصون خصوصيته وترعى ستر ما به وقاطنيه عن الأبصار، وتحفظ للمكان حرمة محمية بسياج من القواعد والتقاليد، مقدرة أن الإنسان من حقه في سكنه أن يحفظ ما به عن الأعين، وأن يصون مسلكه فيه عن من سوى أرباب المكان، فلا يجوز لغيرهم أن يدخلوه إلاّ بعد أن يستأذنوا ويؤذن لهم.

روى عن أبي سعيد الخدري قال: " كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، قال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يأذن لي، فرجعت. قال: ما منعك ؟ قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع، فقال: والله لتقيمن عليه بينة. أمنكم أحد سمعه مـن النبي ﷺ: ؟ قال أبي بن كعب: والله لايقوم معك إلاّ أصغرنا. فكنت أصغرهم، فقمت معه، فأخبر عمر أن النبي ﷺ: قال ذلك ".

وحكمة التعدد في الاستئذان أن المرة الأولى للاستعلام، والثانية تأكيد، والثالثة اعتذار... يؤكد هذه الحرمة للمسكن والإنسان في مسكنه، ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع بعض الفتية الذين كانوا يشربون الخمر في منزلهم فتسور الخليفة عليهم الحائط وكشف معصيتهم، وعندما واجههم قالوا له: يا أمير المؤمنين إن كنا قد عصينا الله بشربنا للخمر فأنت قد عصيته في ثلاثة: فالله تعالى يقول: " ولا تجسسوا " - وقد تجسست علينا، والله يقول: " وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا " (البقرة: ١٩٨) وأنت قد أتيت من الجدار ونزلت منه، والله تعالى يقول: " لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا

عَلَـى أَهْلِهَا " (النور: ٢٧) وأنت لم تفعل ذلك، فدخلت ولم تستأذن قبل الدخول ولم تسلم علينا.. فما كان من عمر رضى الله عنه إلاّ أن كف عنهم.

يورد الدكتور العنانى أنه على مستوى الأنظمة الوضعية الدولية، اهتمت الوثائق بتأصيل هذا الحق نظرا لأهميته، حيث أكدت عليه وثائق الشرعية الدولية لحقوق الإنسان واعتبرته لازمة أساسية من لوازم حقوق الإنسان فى مستوى معيشى مناسب، فقد قررت المادة ٢٥ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى فقرتها الأولى أن " لكل شخص الحق فى مستوى معيشى يكفى لضمان الصحة والرفاهية له ولأسرته، وخاصة على صعيد المأكل والملبس والمسكن... "، وأتت المادة ١١ من العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية أكثر إحكاما وضبطا وتكريسا لالتزام قانونى على عاتق الدول فيما يتصل بتوفير السكن الملائم والكافى لمستوى معيشى مناسب، حيث قررت فى فقرتها الأولى: " تقر الدول الأطراف بحق كل شخص فى مستوى معيشى كاف له ولأسرته يوفر ما يفى بحاجاتهم من الغذاء والكساء والمأوى، وبحقه فى تحسين متواصل لظروفه المعيشية ". على هذا، فإن حق الإنسان فى السكن الملائم المرتبط بالحق فى مستوى معيشى كاف، يتسم بأهمية أساسية بالنسبة إلى التمتع بجميع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لايجد الأستاذ الباحث بأسا من الاسترشاد وتغذية المنظومـــة الإسلامية، بما أفرزته التطبيقات الدولية فى كفالة حق السكن، فيورد أنه تأكيدا على ارتباط الحق فى المسكن بعملية التنمية.. عَبَّر إعلان الأمم المتحدة عام ١٩٨٦ عن صلة كفالة السكن بالحق فى التنمية.. كذلك يجد الحق فى السكن المناسب تأصيله القانونى فى العديد من الوثائـــق العالميـــة، منها: الاتفاقية الدولية (١٩٦٥) للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى، واتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضـــــد المرأة (١٩٧٩)، واتفاقية حقوق الطفل (١٩٨٩)، والاتفاقية الدولية لحماية حقوق العمال المهاجرين وأفراد أسرهم (١٩٩٠)، والتوصية ١١٥ الصادرة عن منظمة العمل الدولية عام ١٩٦١، واتفاقية حقوق

اللاجئين لعام ١٩٥١، والاتفاقية الدولية (٢٠٠٧) لحماية الأشخاص ذوى الإعاقة. وعلى مستوى الوثائق الإقليمية: الإعلان الأمريكى لحقوق الإنسان (١٩٤٨)، والاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان (١٩٥٠)، والميثاق الاجتماعى الأوروبى (١٩٩٦)، وإعلان القاهرة لحقوق الإنسان الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامى عام ١٩٩٠، والميثاق العربى لحقوق الإنسان المعتمد من القمة العربية السادسة عشرة فى تونس ٢٠٠٤.

من مراجعة هذه الوثائق المختلفة وغيرها، يتضح أن الحق فى المسكن الملائم هو حق لجميع الأفراد، لا يخضع التمتع به لأى شكل من أشكال التمييز. وينبغى التعامل مع هذا الحق باعتباره حقا طبيعيا للعيش فى مكان يتفق مع آدمية الإنسان ويحقق له السلامة، والأمان على نفسه وذويه ومتعلقاته.. هذا الحق يرتبط ارتباطا وثيقا بسائر حقوق الإنسان وبالمبادئ الأساسية التى تقوم عليها هذه الحقوق، التى يرى الباحث أن التمتع الكامل بها - يتأثر إلى حد كبير بمدى كفالة الحق فى المسكن بأبعاده المختلفة.. ويستطيع المتأمل فى المنظومة الإسلامية لحقوق الإنسان، أن يرى أنها تكفل بتضافرها وحسن تطبيقها تحقيق هذه الغاية.

هذه المنظومة الإسلامية باحترامها آدمية الإنسان، وكرامته وحريته، وحرمة عرضه وماله، وخصوصية بيته - تكفل كل مطالب هذه الرعاية التى تعارفت عليها العهود والمواثيق العالمية.

أما عن المستوى المعيشى المناسب، فقد طاف الباحث مستطلعا ما تعارفت عليه المواثيق والمجتمع الدولى فى هذا الشأن ليخلص إلى أن الإسلام بحرصه على آدمية الإنسان وكرامته - قد وفر كل المعطيات اللازمة التى تكفل للإنسان مستوى المعيشة المناسب فى الغذاء والكساء والصحة والتعليم والتضامن والتكافل الاجتماعى، وكيف حرص بهذا التكافل على جبر الضعيف والعاطل والمريض والمحتاج وغاير القادر، وحرص مع احترامه للعمل كقيمة - على أن يوفره ويحث عليه ويفرض للعامل حقوقه، ليصب ذلك كله فى كفالة

مستوى المعيشة اللائق والذى يتعانق مع ما قدمه الإسلام لكفالة السكن المناسب وحماية خصوصيته وحرمته وأمانه.

يتمم هذا البحث، ما كتبه الأستاذ إسحق تراورى من مالى، حول الحقوق الاجتماعية وكفالتها فى الإسلام، فيتحدث عن حق العمل الذى هو الأمل فى حياة آمنة تتحقق فيها الغايات والأهداف بسبل مشروعة قوامها السعى والنشاط، وعن حق الصحة من خلال منظومة رشيدة تستبق إلى الحماية من المرض أو الإصابة، وتوفر التطبيب والعلاج، وعن حق التعلم وكفالته مع الدعوة إليه والحث عليه وتوفير وسائله والتشجيع على ارتيادها، وعن حق المسكن الذى أفرد له الباحث جانبا يتلاقى مع ما كتبه الدكتور العنانى.. هذه العناصر تشكل فى مجملها ركيزة من ركائز أمان المجتمع الذى يأمن مجموعه بأمان أفراده، وبما يكفله لهم المجتمع نفسه من حقوق اقتصادية وثقافية واجتماعية، وهى هى غاية الإسلام الذى جاء رسالة هادية تكفل كرامة وأمان الإنسان حيث كان.

المحور الرابع

دور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى

خصص المؤتمر - المحور الرابع من بحوث وفعاليات المؤتمر، لدور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى، ودارت البحوث المقدمة حول " قضية التقدم فى العالم العربى وحتمية بعثه "، وحول " دور المسجد فى تحقيق الأمن المجتمعى "، و " دور الجمعيات الأهلية فى تحقيق الأمن والسلام "، و " دور المؤسسات فـــى تحقيق الأمـــن المجتمعى "، ودور مؤسسة المسجد ودور المساجد فـــى جمهورية قازاقستان، ومخاطر الأمية على الأمن الاجتماعى ودور الأئمة والمساجـــد فى معالجتها، ودور الأسرة فى هذا المجال. وتناول هذه البحوث علماء وكتاب من مصر، ومن ليبيا، ومن الأرجنتين والهند وجنوب أفريقيا، ومن الكاميرون وقازاقستان والبحرين، والسعودية واليمن، وتايلاند والسنغال، وتركيا ولبنان وقرغيزستان، ومن أمريكا وأوزبكستان.

وتصدر بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران رئيس جامعة القاهرة الأسبق ووزير الصحة المصرية الأسبق عضو مجمع البحوث الإسلامية - تصدر بحوث هذا المحور تحت عنوان: " قضية التقدم فـــى العالـــم العربى "، منبها فى مستهله إلى لزوم الاهتمام بمنابع التقدم فى الصحة والسلامة مع توافر الغذاء، وفى التعليم والبحث العلمى واقتحام مجالات التطوير التكنولوجى، ووجوب إرجاع عوائد التنمية الشاملة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا للجميع، حالة كون ذلك هو الداعى والكافل للاستقرار والأمل، وكلها واجبات وفرض عين لرعاية الإنسان العربى إعمالا للحديث النبوى: " إن الله سائل كل عبد عما استرعاه - حفظ أم ضيع ".

وعن الإطار، يلاحظ الباحث دخول أكثر من ٨٠% من شعوب العالم فى توحدات كما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو فى منظومة الوحدة الأوروبية، لم تجارها فكرة الجامعة العربية التى لم تتعد للآن العلاقات الصحية والدراسات، بينما ظهرت تكتلات جديدة مثل " النافتا " التى شملت كندا والولايات المتحدة والمكسيك، و " الآسيان " فى شرق آسيا، والدول المطلّة على المحيط الهادى، وتقارب دول أمريكا الجنوبيـــة، وقد انضمت أخيرا بعض الدول الإسلامية إلى التكتلات الآسيوية التى تجمع حوالى ٨٥% من سكان العالم، أما الباقى فيتمثل فى بعض دول أفريقيا السوداء، والباقى فى الدول العربية الإسلامية التى بلغت الآن نحو ٣٠٠ مليون من المتوقع أن يصل تعدادهم عام ٢٠٥٠ إلى ٧٠٠ مليون نسمة.

ومع الإشارة إلى وجود المقومات التى تفتح الفرص للإنسان العربى، كالبعد الإنسانى الاجتماعى والتاريخى والجغرافى والقيمى، والبعد الدينى بما فيه تقارب اللغات والأسس العقدية بين الإسلام والمسيحية فى النسيج المصرى، والبعد العرقى المتمثل فى الجذور والموروثات الحضارية والجينات والتراحم والتزاوج، والبعد الجغرافى المتمثل فى التواصل الطبيعى الذى لم تفلح الحدود المصطنعة فى وقف انسيابه - فإن البعد العلمى على التخصيص يستلفت النظر إلى ما لحقه ويلحقه من تطوير فى عالم العولمة الذى تغير فيه الإحساس بقيمة الوقت والمسافة بظهور الإنترنت وما توفره الأقمار الصناعية، وسهولة نقل المعلومات والأموال، وحل شفرة الحياة فى العلوم البيولوجية الحديثة مع توافر القدرة على التحكم فى الجينات.

ينتقل الباحث بعد استعراض سريع للمخاطر المحيطة والمؤثرة فى القضايا العربية - إلى "الفجوات" الاجتماعية المبتدعة والإقليميـــة المـــصطنعة نتيجـــة سياسات الاستعمار والاستغلال الخارجى مع القهر الداخلى واستنزاف الموارد - وتضخيم المفارقات الطبقية والقبلية والاجتماعية والمادية، وضـــعف قـــدرة الشعوب - بالتنازلات السياسية فى حقوقها - على النمو والإفادة مـــن وســـائل

العصر، والتحكم فى استكشاف مصادر القدرة - كالبترول - حسب المزاج، وفى تواضع التقدم البحثى، مما أدى إلى " فجوة معرفية " رسخت التبعية التنموية والسياسية المعيقة للتقدم، ومن آثارها التدهور البيئى، وفرض معايير أمان Technology Degradation باهظة التكاليف، ودفع الأمة إلى صراعات سياسية داخلية وخارجية، وتعظيم الخلافات التى قد تنتهى إلى التطهير العرقى (دارفور والصومال كمثال)، والتدهور الصحى والأمنى بسبب تغيرات ديموجرافية وسياسية وزيادة الفقر والبطالة، وتدهور السلوكيات العامة.

هذا الوضع لا بد أن يؤثر بالسلب على الأمن المجتمعى، لذلك يبدأ الباحث بالتنبيه إلى أن ازدياد البطالة يستوجب تحركات سريعة يضرب لها أمثلة بإعادة التأهيل والتدريب لاكتساب المهارات الجديدة المطلوبة فى الأسواق، وتطوير جذرى لبرامج وأساليب التعليم بعامة والجامعى بخاصة، والتركيز على المجالات المطلوبة من التكنولوجيا الجديدة بأنواعها، ومواجهة صعوبة توزيع القوى البشرى الإقليمية على المناطق قليلة السكان والتى حداها ذلك القصور إلى الاعتماد على استيراد قوى بشرية مدربة من دول خارج المنطقة، وبعيدة غالبا عن السلوكيات الاجتماعية المقبولة.

يتوقف الأستاذ الدكتور الباحث، وهذه مهنته بل رسالته وحياته، عند الصحة والدواء - الغذاء والماء، فيطيل التفصيل فى تمكن و قتدار حول الصحة والدواء ومستلزماته لتحقيق العائد الإنسانى الأعلى والمضمون، أو كما قال تيودور شولز العالم الاقتصادى: " إن الاستثمار فى الإنسان - صحة وغذاء وتعليم ".. ولا يمكن رسم وتنفيذ ذلك دون الإحاطة بالمستجدات المتطورة على الساحة العالمية فى القرن ٢١، والظواهر العالمية المؤثرة فى الحياة كالنظام العالمى الجديد وحقوق الإنسان وحقوق الفرد وتأثيرها فى الصحة والتعليم والغذاء والمعلومات، أو دون الإحاطة بالعوامل المؤثرة على الصحة فى عالم اليوم، كالتقدم العلمى والتكنولوجى والمتغيرات السكانية والديموغرافية وسرعة

وسهولة التنقل والثورة الصناعية وأثرها فى تلوث البيئة وارتفاع أسعار نفقات العلاج الصحى، وتطور سبل ومسارات التعليم الطبى.

فما هى العوامل المؤثرة فى الحالة الصحية فى العالم ؟ سؤال هام يثيره الأستاذ الدكتور بدران ليحصر الأسباب فى أسلوب تلغرافى حتى لا تضيع الخطوط العريضة فى التفاصيل: تقدير قيمة الوقت فى إنقاذ الحياة خاصة فى الحوادث والحالات الحرجة. قيمة البحوث الطبية والدوائية والاستقصاءات الصحية الكاشفة. ملاحظة تغير السلوكيات البشرية والمهنية بما فيها السلوكيات الطبية والحيوية. مدى تعظيم دور التعاون الخارجى والترابط الداخلى للاستفادة بالمستجدات فى الطب والعلاج. متابعة قضايا إنتاج الدواء والتحكم فى أسعاره وأنواعه، وإنتاج الغذاء وتداوله والتحكم فى كمياته وجودته وعدم تناسى أدويـــة الفئات الفقيرة، وملاحظة الآثار السلبية لاستغلال المنتجات الزراعية فى إنتاج الطاقة مما سوف يؤثر فى أسعار الغذاء.

وتحت عنوان المؤشرات الأساسية لرصد الحالة الصحية، يتحدث الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران عن البحوث والدراسات اللازمة التى ظهرت، وعن التحركات المطلوبة فى تقييم الأولويات المرضية وأعبائها، والسلبيات ومواجهتها، وتقييم أسلوب الحياة والدخل للطبقات المختلفة، وتحديد نسبة الوفيات بعامة وفى الشرائح المختلفة، وتقييم فاعلية المنظومة الصحية والوبائية، والاهتمام بمستوى السلوكيات الصحية الحميدة.

ذلك كله يستلزم فيما ينبه الأستاذ الباحث إلى وجوب تطور التنمية البشرية فى المجال الصحى، ومعرفة وتفعيل الأسس الحاكمة والمطلوبة لتقريب مستوى الخدمات الصحية لتتوازى مع المتغيرات العالمية وتحديد المنظومة المناسبة للقيام بهذه الأعباء ابتداءً بالوقاية ثم بتوفير أنماط ووسائل العلاج فى إطار منظومة اجتماعية تكافلية لا تهمل الفقير، ورعاية حالات الإصابات والكوارث، وتحقيق وضبط جودة الأداء ورفع مستوى الخدمة الطبقية وقايةً

وعلاجاً على أساس منظومى متكامل وأسلوب عمل وتدريب كافل لتحقيق هذه المنظومة.

لا يتركنا الأستاذ الباحث دون اقتراح مشروع كامل متكامل، وبيان تقييمه وعناصره، فى إطار تكافل اجتماعى يستشهد عليه الدكتور بدران بقول الحق تبارك وتعالى: " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" (المعارج: ٢٤، ٢٥).

ضمن هذه العناصر يتوقف الباحث عند قضية الدور العربى، ودور وخصوصيات السلوكيات الطبية فى الخدمة الصحية، وتقنيات المستوى الإدارى للأداء، والصفات الواجبة لمسئولية الطبيب السلوكية وخصوصية الأمن الغذائى فى إطار التكامل الغذائى والمالى، يتبعها بإحصائيات وافية ومفيدة للمساحة الزراعية المتوفرة فى العالم العربى، وما يتبعها من الثروة الحيوانية والسمكية والموارد المائية المتاحة بأنواعها ومصادرها المختلفة، والفقر المائى فى بعض المناطق وعلاجه، ومصادر المياه الجوفية وما تتيحه وتفتحه من وسائل تعويضية.

هذا البحث هو تصدٍّ واعٍ نابع من الإسلام ومبادئه فى العدالة الاجتماعية ورعاية الفرد والمجموع وتوفير الغذاء والماء والسكن والعلاج - ويورد رؤية متميزة لما دار حوله ومن أجله المؤتمر: كيف يتحقق الأمن المجتمعى فى الإسلام ؟ لا يتوقف الباحث عند الآمال، وإنما يضع الحلول النظرية والعملية لتوفير هذا الأمن من خلال الأمن الصحى والغـذاء المائى، يختمه بتساؤل هام يجيب عليه: إلى أين المسار ؟

تحتاج هذه الآمال العريضة إلى مشروع تنموى متكامل لتحقيق نهضة وتنمية مستدامة، وإلى الالتفات إلى أهمية التكامل الاقتصادى لكفالة الاعتماد المتبادل، وإلى أهمية الرعاية التغذوية كمدخل أساسى ولازم وضرورى للمنظومة الصحية، وإلى تحقيق التكافل الاقتصادى بين الأفراد والمجتمعات،

والتركيز على الثروة الزراعية والحيوانية والداجنية والسمكية بدعم المياه وترشيد استغلالها، وعلى سلامة الأرض والمحاصيل والحيوانات الحقلية، والاهتمام باستغلال بدائل الطاقة الحفرية لأهمية الحفاظ عليها لاستغلالها لأطول وقت ممكن.

هذه الرؤية هى إجابة موضوعية ومحققة تضع الحلول فى موضعها لكيفية كفالة الأمن المجتمعى فى الإسلام.

• • •

لافت للنظر، أن المحور الرابع للمؤتمر قد ضم ثمانية مقالات عن " دور المؤسسات " فى تحقيق الأمن المجتمعى، وخشيت التكرار مع هذا التعدد، وفى مقال الدكتور عبد الله التطاوى، عنى بدور المدرسة والجامعة على التخصيص باعتباره نائب رئيس جامعة القاهرة، فلا يمارى فى حدوث تدنٍّ فى المستوى التعليمى يستحضر ضرورة الإصلاح وما يستوجبه من حزمة برامج إصلاحية تبين أنها يجب أن تبدأ من تطوير المناهج بحيث تكون المناهج الجديدة جاذبة لا طاردة للطلاب، مما يستلزم دعم المعلمين بجدد مع الحاليين الواجب تأهيلهم لتكريس القدرة على توصيل المناهج العصرية، مع إحياء الضمير العلمى للمعلم، ومواجهة محنة تفشى الدروس الخصوصية وآثارها السلبية، بما فى ذلك تفشى ظاهرة التباهى بذلك بين الطلاب الأثرياء، وظهور أباطرة بين المعلمين على حساب الفقراء، مع ابتعاد فعلى عن المقومات التعليمية، الأمر الذى سرعان ما تظهر نتائجه فى المرحلة الجامعية، والتى امتدت إليها المحنة هى الأخرى فى ظل الكثافة الطلابية وتكدس المدرجات ونضوب المعامل وغياب تفعيل الساعات المكتبية للأساتذة، الأمر الذى يستوجب تفعيل ضمانات الجودة ضمن سلسلة من الاقتراحات يفيض الباحث فى الحديث عنها.

لا يهمل البحث وجوب الاهتمام باحترام الهويـــة والخصوصية الثقافية، مع تعزيز النسق المجتمعى والتاريخى والإيقاع النفسى والوجدانى والجمالى بما ينعكس بالإيجاب على منظومة العلاقات الحاكمة للجماعة، ومنها الاعتبار الأمنى بروافده ومعطياته المتنوعة. ولأن اللغة هى وعاء الثقافة ووسيلة التفكير الذى يحدد رؤية العالم ونواميسه، لذلك فإن الاهتمام باللغة العربية يشكل ركيزة لتحصين الهوية وجنى هذه الغايات، والذى يعنينا فى إطار ما أفاض فيه الباحث من حديث عن اللغة وموقعها من تاريخ التعليم والهوية، وآراء ابن خلدون، أن الباحث لم يتجمد على اللغة العربية، ولم يطلب الانحصار فيها، بل طلب المزيد من الانفتاح على اللغات العالمية لمواكبة موجات التقدم التكنولوجى المذهل، واستيعاب التطور المعرفى، وهو ما يحقق - مع الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية - بقدرة أوسع على التعامل مع العالم بفهم وقدرة على استيعاب وإدارة الحوار معه، ومع قيمة استطرادات الباحث حول اللغة التى يبدو واضحاً أنها تخصصه، فإنه من المهم الربط بين الموضوع وبين أثره فى تحقيق مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام، وهو ما أظن أن البحث لم يتفطن إليه بالقدر الكافى، وإن استطعنا أن نستخلص من مادته أن النهوض بالتعليم واتساع الفهم والمدارك، ينبذ التعصب والجمود، ويقيم جسورا للتواصل الإنسانى بما ينعكس بالإيجاب على مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام.

وكما اهتم الدكتور التطاوى بالمدارس والجامعات بحكم تخصصه، اهتم الدكتور أحمد أبو الوفا أستاذ القانون الدولى بحقوق القاهرة ــ بدور الجمعيات الأهلية، فبدأ بالتعريف بها والقانون الذى ينظمها لينتقل مباشرة إلى فكرة الأمن المجتمعى فى الإسلام، فيحدد تأصيلها من واقع الكتاب والسنة، وذلك متكرر فى بحوث المحاور السابقة، انتقل منه الباحث إلى مبدأ التعاون بين المسلمين، وأسس هذا التعاون التى أوردتها وأكدت عليها آيات القرآن الحكيم.. فالتعدد للتعارف، والتعاون يكون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، مثلما أكد

الحديث النبوى على هذه المعانى، مثل حديث: " من كان فى حاجة الناس كان الله فى حاجته ". وحديث: " والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ".

بعد ذلك يلاحظ الباحث أن المرد الأساسى لتحقيق الأمن المجتمعى ــ هو لزومه لجميع المسلمين، ومع أن الباحث أستاذ للقانون الدولى، وهى مادة مليئة بالآيات على شمول رعاية المجتمع الإسلامى لكل الموجودين فيه، مسلمين وغير مسلمين، إلاّ أن الأستاذ الباحث أفاض كثيرا وأورد الأدلة تلو الأدلة على لزوم ذلك الأمن بين المسلم والمسلم، دون أن يلتفت إلى أن الموضوع هو مقومات الأمن المجتمعى فــى الإسلام. أى مقومات أمن المجتمع بعامة، بما يشتمل عليه ويضمه من مسلمين وغير مسلمين، وأن حجة الإسلام فى هذا الباب أنه قد ضمن ووفر الأمن للمجتمع كله بعامة، لا للمسلمين بخاصة، ولم يلتفت الأستاذ الباحث مع أنه متخصص فى القانون الدولى ــ إلى دور الجمعيات الأهلية على الصعيد الدولى إلاّ بعد قرابة عشرين صفحة محصورة فى أمن المسلم، ثم هو حين عرض فى آخر وريقات البحث (ص ٩٦٣) إلى دور الجمعيات الأهلية على الصعيد الدولى، حصر الحديث على الجانب الدولى بمعناه الاصطلاحى فيما بين الدول من علاقات واتفاقيات وعهود ومواثيق، ولم يذكر دور الجمعيات الأهلية فى حماية حقوق الإنسان إلاّ فى عبارات مبتسرة بآخر ص ٩٦٥.

وربما يحسب للباحث أنه تفطن إلى الموضوع ص ٩٦٦/٩٦٧، فأورد أن تحقيق الأمن المجتمعى - وهو أمن الجماعة بمفهومها الواسع، وهذه أول مرة يستخدم الباحث فيها هذا التعبير ــ له جناحان ! الجناح الحكومى بوظائفه وآلياته، والجناح غير الحكومى كالأفراد أو الجمعيات الأهلية التى عليها تنسيق أنشطتها والعمل على ترسيخ الأمن المجتمعى بمفهومه الشامل اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، والتخفيف عن كاهل الدولة. أما كيف، فإن الصفحات الطويلة التى استغرقتها المقدمات، لم تسمح للبحث بأن يقدم لنا رؤية موضوعية تفصيلية مدروسة للدور الحيوى الواجب على الجمعيات الأهلية بذله

لتحقيق الأمن المجتمعى فى الإسلام، ولعله اكتفى بالقول فى نهاية بحثه بذكر أن: " تكوين الجمعيات لعمل الخير لايمنع منه الشرع والقانون " ! كنت ولا أزال أنتظر من الأستاذ الباحث أن يبين لنا كيف يجب أن يكون إسهام الجمعيات الأهلية فى كفالة الأمن المجتمعى فى الإسلام !

وقريب من هذا المجال الذى تخيره الباحثان السالفان، ما كتبه الدكتور حسن بن سليمان أو رموشيف مدير جامعة محمود قشغازى برسقانى عن الأرض والسلامة فى التعليم والتربية فى قرغيزستان، ملاحظا أنه إذا كانت التربية والتعليم ركنا جوهريا يعتمد عليه تعليم طرق الحياة، فإن القدماء قد أصابوا حين قالوا: " إصلاح تفكير الإنسان أصعب من إفساده " !، وأنه لكى تنتج التربية المرومة أثرها فى إصلاح النفوس، فإنه يتعين أن تبدأ من الطفولة، وأن تستهدف تعليم الدعوة إلى الأمن والسلامة للمجتمع العالمى، وشجب الفساد والمفسدين الذين يروعون الناس ويقتلونهم بلا سبب، ويشعلون النار بين الجماعات والشعوب. وتحقيق هذه الغاية يستلزم الاعتماد على التوجيهات الإسلامية فى برامج التعليم والتربية فى المدارس والجامعات، وأن تعنى بالعدالة والحفاظ على الأمن والسلامة فى المجتمع.

ويتوقف الباحث عند تجربة بلده، فيورد من واقع الإحصائيات دور الجامعات الدولية والشرقية والأجنبية وكلية اللغة العربية والمراكز التعليمية فى تدريس الديانات، وما أصدره برلمان قرغيزستان فى ديسمبر ١٩٩١ من قرار عن حرية الدين والجمعيات الخيرية، وكيف طفقت الحكومة هناك منذ ذلك التاريخ تعنى بتشجيع المسلمين على دراسة قواعد الدين وشرائعه، وافتتحت جامعة عمر بن الخطاب الإسلامية، وسبعة معاهد إسلامية ونحو أربعين مدرسة، تتبنى الدراسات والبحوث التى توصل التعليم والتربية الصحيحة التى تصب فى صالح كفالة أمن المجتمع بأفراده ومجموعاته على أسس إسلامية تحارب الآفات والعادات الضارة كالخمر والتدخين والمخدرات والدعارة والسرقة، وتكرس القيم الإسلامية النبيلة الكريمة، وهو ما دلت الإحصائيات

على أثره الملموس فى تربية الشباب على قيم النظام والعدل والصدق والرحمة والصبر وحب العمل وإتقانه.

وأضاف الباحث أنه من آثار هذه السياسة أن نجح المتعلمون من خريجى الجامعات والمعاهد فى شغل الأماكن المؤثرة متسلحين باللغة العربية، والمواقع الصحفية والإذاعية بما ساهم فى إثراء الوعى، ومحاصرة العنف والإرهاب، وبث السلام والطمأنينة والأمان فى المجتمع الإسلامى هناك.

دور المنظمات الإسلامية

نعود الآن إلى باقى المقالات أو البحوث الثمانية التى اتخذت لنفسها مادة واحدة هى دور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى، بعد أن تناولنا ما تعلق منها بدور المدرسة والجامعة، أو بدور الجمعيات الأهلية، وفى إطار التربية والتعليم.. وتكون باقى المقالات وهى خمسة، قد تناولت شأنا واحداً، فتناول المهندس محمد يوسف هاجر - من الأرجنتين - تناول الموضوع من زاوية دور المنظمة الإسلامية فى أمريكا اللاتينية والكاريبى التى تأسست عام ١٩٩٧ من (١٩) دولة لأجل توطيد العلاقات وتوحيد وتضافر الجهود فى بث روح التعاون المشترك وتنسيق وتوحيد وتفعيل دور الحوار والانخراط فى المجتمعات التى تعيش فيها الجالية المسلمة فى أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبى لتحقيق الأمن المجتمعى.

وانضمت إلى هذه المنظمة التى باشرت دورا ملحوظا، مجموعة منتدى الكاريبى، وصار اسمهما معا: " المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية والكاريبى، وتراعى فى نشاطها المعطاء خصوصية ظروف المسلمين هناك، فالهجرة الإسلامية إلى هذه الأراضى بدأت منذ عام ١٨٥٠، وهناك دراسات تشير إلى أنها بدأت قبل حركة الكشوف الأولى، فضلا عن البحارة المسلمين الذين صاحبوا كريستوفر كولومبس فى هذه الأراضى الجديدة التى توزعوا فى شتى بقاعها، وساهموا مع العبيد المسلمين المستجلبين من سواحل أفريقيا فى نشر الإسلام. وأنه ساعد على اتساع دور المسلمين وأثرهم أن دول أمريكا اللاتينية لم تكن دولا استعمارية، ولشعوبها طباع أشبه بالطبائع الشرقية، وأنه ساعد على اندماج المسلمين فى هذه المجتمعات الزيجات التى عقدت بين شبابهم وبين بنات بلاد المهجر، واحتضان وتهجين العادات فى ذيوع وانتشار الإسلام الذى استطاع مع تواضع وبساطة شعوب المنطقة أن يؤدى دورا فعالاً، سواء

فى كفالة أداء شعائره، أو فى انتشار الإسلام بلا معوقات أو مضادات، وأنه ساعد على انتشار الأمن والأمان، أن الدستور السائد هناك حرم أى صور للعنصرية، وكفل احترام مقدسات الأديان، فخلا المجتمع من أى مظهر من مظاهر التعصب، واحترمت المقدسات الإسلامية احتراما لاقاه المسلمون باندماج صحى مع طوائف المجتمع فى باحة واضحة من الأمن والأمان، غذى ذلك تحلى المسلمين بالصدق والأمانة والنزاهة فى السلوك وفى المعاملات.

ويحكى الباحث أنه تأكيدا للأمن المجتمعى الذى يرعاه الإسلام، حرصت المنظمة على عقد لقاءات متواصلة مع المسئولين عن الشئون الدينية والتربية ورجال الدين المسيحى تاركين جانبا العلاقات السلبية التى تجلب البغضاء والكراهية، مما أتاح حوارا حياً عاقلا وتواصلا وتعاونا بين الأطياف الدينية لتحقيق الأمن الاجتماعى وحماية الإنسان الذى كرمه الله وحرم الاعتداء عليه، وهو ما ساعد على بيانه وتوثيق المنظومة الأخلاقية الإسلامية الرفيعة، وفى إطار دستور للتعامل اتفق علـيه الجميع: ١ - احترام كرامة الإنسان ٢ - الاعتراف بالآخر ٣ - حق تكافؤ الفرص ٤ - لا إكراه فى حرية الفكر والضمير والمعتقد ٥ - وتية وصراحة لغة الحوار.

وتحت ذات العنوان تقدم الأستاذ إبراهيم عبد السلام إبراهيم، من الهيئة العليا للأوقاف وشئون الزكاة فى ليبيا - بمقالة بحثية، عرضت بعد المقدمة عن نبذ العنف فى الإسلام ودور الأسر فى تحقيق الأمـن المجتمعى، للحديث عن أن الأمن المجتمعى مطلب عالمى، ولا اعتراض لأحد على ذلك من ثم فإنه لا يضيف جديدا، وعن أن العنف باسم الإسلام مرفوض، وأن الإسلام برىء من الإرهاب، وهذا بدوره متفق عليه.. بعد ذلك تحدث البحث عن دور المسجد، ثم عن دور الأسرة، ثم دور المدرسة والجامعة، ثم دور الإعلام والثقافة فى تحقيق الأمن المجتمعى.. أما عن دور المسجد فقد تناولته بحوث أخرى على استقلال سنعود إليها، ودور الأسرة متفق على أهميته فى تربية النشء وبث السلوك القويم وثقافة التعاون والتسامح، ودور المدرسة والجامعة تناوله

باستفاضة عرضناها بحث الدكتور عبد الله التطاوى، ومع أن البحث تناول دور الإعلام والثقافة فى تحقيق الأمن المجتمعى، إلاّ أنه تحدث عن قوة وآليات الإعلام، وأشار إلى أهمية دوره فى التوعية والتبصير - ولكن كيف، وما هى العوائق والسلبيات التى تحول دون ذلك ؟ لم يجب البحث على هذا السؤال المهم، مع أنه أهم وأخطر ما يجب التعرض له عن الإعلام العربى على وجه الخصوص.. فلم يعد خافيًا أن كثيرا من قنوات وآليات الإعلام العربى تنشر ثقافة التعصب والتمحور على الذات، وتعطى ظهرها لثقافة التفاهم والتسامح.. والأمثلة على هذا الجنوح فى آليات الإعلام العربى بعامة أوسع من أن تحصى أو تقع تحت حصر. يكفى أن تلاحظ احتقان أحاديث لبعض المتحدثين، وجموح تعصبهم ومصادرتهم على كل ما يخالف خطهم أو يناقش أفكاره أو يبدى رأيا أو فكـرة لا تروقه، ومع ذيوع ثقافة التعصب والانغلاق وغياب ثقافة التسامح، جعلت بعض قنوات أو آليات الإعلام تحشد الحشود لبث ما تريد مما يؤدى إلى الاحتقان وغياب الأمن والأمان، ويستطيع كل متابع لأى حادث طائفى - وخذ مصر على سبيل المثال - أنْ يلاحظ أن " مفردات " التناول فى كثير من الصحف تؤدى إلى الاحتقان بل تشعله ولا تداويه، وأن ذلك راجع إلى غلبة رغبة السبق الصحفى أو الظهور، على مقتضيات الوحدة الوطنية واعتبارات الأمن الذى يجب أن يسود المجتمع أخذا بذات مبادئ الإسلام التى اتسعت لكل من يعيشون فى المجتمع الإسلامى أيا كانت دياناتهم أو مللهم أو عقائدهم !

وعن ذات " دور المؤسسات " - كتب الشيخ أبو بكر أحمد سليار الملبارى من الهند، فتحدث بدوره عن عموميات الضرورة الملحة للأمن المجتمعى الإسلامى، وعن مصادر وأسانيد ذلك فى الكتاب والسنة، وقد مرت بنا كثيرا فى بحوث أخرى ولا محل لإعادة ترديدها، كما تحدث الباحث عن دور الأسرة، وهو تناول متكرر لم يزد فيه البحث شيئا عن الكلام المعاد عن واجب الأسرة فى تربية النشء وتقويم الأخلاق، ولكنه - كغيره - لم يعرض لما يصيب

بعض الأسر من انشقاقات مدمرة بسبب جموح وتطرف وتعصب بعض أفرادها وفساد علاقتهم بباقى الأسرة وتوارى أثر ومحبة ومودة القربى، مما يشكل أزمات أسرية باتت ملحوظة فى كثير من العائلات، وتستوجب النظر والعلاج واستحضار معانى صلة القربى واستخدامها أثرها فى محو التطرف ومعالجة سلبيات التعصب، وغير ذلك كثير واجب تناوله بدلاً من الألفاظ والعبارات المكررة المعادة عن أهمية دور الأسر، وكأن ذلك بذاته يحل ما تتعرض له بعض العائلات من ضربات موجعة فى الصميم تعرض الأمن المجتمعى لأوخم العواقب والأضرار.

بعد ذلك عاد البحث لتكرار ما ورد فى البحوث الأخرى من أحاديث معادة عن دور المدارس والمعاهد والجامعات، والإعلام والثقافة، ولعل الشىء المتميز فيما تناوله الباحث أنه فصل الحديث فى التجربة المحلية فى كيرالا.

وقريب من هذا النمط فى المعالجة بذات الموضوع، تقدم الأستاذ أحمد يوسف لوكهات رئيس المنظمة الإسلامية التعليمية فى جنوب أفريقيا، فكرر الحديث المعاد عن دور الأسرة والأب والأم والأبناء، ودون غوص فيما يعترض بعض الأسر من ظروف سلبية تؤثر بجموح أو تطرف بعض عناصرها وأثر ذلك على وحدة وأمان ودور الأسرة، وما يتعرض له باقى عناصرها من مؤثرات سلبية لمن تطرفوا أو جمحوا منها فى اتجاه التعصب والعنف والإرهاب، كما كرر الباحث ذات الحديث المعاد عن دور المدرسة والجامعة، وكذلك عن دور الإعلام والثقافة، دون بيان أو تفصيل لكيفية أو أداء وسلامة هذا الدور وتحقيق تأثيره المرجو فى محاصرة الاحتقان والتطرف والتعصب ونشر ثقافة التسامح، وهى ثقافة جذورها وقاعدتها إسلامية.

* * *

لم يتحدث بحث من هذه الأبحاث بكفاية عن دوحة المساواة والتسامح فى الإسلام، وفى هذين الجناحين يكمن أساس ركنين أساسيين للأمن المجتمعى فى

الإسلام. فسماحة الإسلام من خصال وشمائل الإسلام، وهى خصلة جامعة لخصاله تلتئم مع كل هذه المعالم والسمات فى اتساع الإسلام للعالمين إلى يوم الدين، وامتداد واحته إلى من لم يؤمن به مثلما هى للمؤمنين به.. والإسلام يخاطب الناس كافة على سنن الهداية والبيان والإقناع الذى يخاطب الألباب والضمائر والوجدان، ولا يغلق دون أحد بابه، ولا يوصد واحته أو يعطى ظهره فى وجه أحد.. واستلزم منظومة معطرة من الأخلاق والسجايا والخصال جعلت من واحة هذا الدين عنوانا للتسامح، سواء بين بنيه المؤمنين به، أم بينهم وبين باقى الناس، كل الناس، على اختلاف أديانهم ونحلهم ومللهم وعقائدهم ومذاهبهم وأعراقهم وأجناسهم وبلدانهم.. عدل الإسلام، عدل مع الناس كافة، يتجه إليهم بسواء موازينه دون ما تفرقة لأديان أو ملل أو نحل أو أعراق أو أحساب أو أنساب.. منظومة الأخلاق الإسلامية، تلك البديعة الرائعة، الشاملة الجامعة المانعة - أرادت للمسلم ورسمت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته أن يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصل.. سماحة الإسلام مع منظومة سجاياه رسالة إلى الدنيا فرقت بين عهدين.. تسالم وتبث المحبة والإسماح ولا تبادئ بعداء، ولا تلفظ من رحابها أدناء الملل والديانات الأخرى، بل هى تؤمن الكافر وتجيره حتى يسمع كلام الله ثم تبلغه مأمنه.. فى القرآن المجيد: "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ". (التوبة: ٦).. كفر الكافر وشركه دال على جهله وانعدام أو فقر علمه، فإن علم كان العلم كفيلاً بهدايته.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن.

فى هذه المعانى كتبت كثيرا فى عالمية الإسلام، استحضارها هنا هو أوجب الواجبات لبيان أساس الأمن المجتمعى فى الإسلام، ومقدمة المقدمات لهذا الأمان أن الإسلام رفض كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣).. " كلكم لآدم.. وآدم من تراب.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم." يتسامح الناس، ويتسامح المتدينون، حين يدركون أن أصلهم واحد، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة.. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء "(النساء: ١).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والإسماح.. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى.. الهداية الإسلامية لا تفرض بالقسر والإرغام، وإنما هى دعوة هادية بالمحبة والبيان.. " مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى." (الإسراء: ١٥).." قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ " (الأنعام: ٩١).

وعلى هذا تقوم أسس الأمان والأمن للمجتمع الإسلامى. *

* عن كتاب ــ عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط ٢٠٠٣

دور المسجد
فى تحقيق الأمن المجتمعى

لم يعد باقيا من بحوث أو مقالات المحور الرابع لمؤتمر الأمن المجتمعى فى الإسلام، إلاّ ما كتب حول دور المسجد، ومن هذه المقالات مقالة الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية، وعن وظيفة المسجد ذكر أنه شرع لعبادة الله وحده، وأن هذه العبادة تتمثل فى الصلاة والطواف بالبيت العتيق، والاعتكاف للعبادة فيه، وأنه رمز وحدة المسلمين.. يتعلمون فيه ويمارسون شعائر الإسلام، ويتلقون أحكام الشريعة.. يجتمعون فيه للصلاة فى مساواة وتآخٍ يقارب بين الأفئدة ويجمع الكل على محبة الخير والإقبال عليه.

ويضيف الباحث من واقع السيرة النبوية، أن النبى ﷺ، مارس من خلال المسجد عملية بناء الأمة على البر والخير والتقوى وطاعة الله والتمرس على عبادته، والحض على التعارف والتعاون فى الخيرات ونبذ الإثم والعدوان والمعاصى.. ونجد هذه المعانى فى دعوة الخليل إبراهيم التى قال فيها القرآن المجيد:" وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ " (الحج: ٢٦- ٢٨).. وجاء فى سورة البقرة قوله تبارك وتعالى: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة: ١٢٧ ــ١٢٩).

وبذلك تتحدد وظيفة المسجد فى عبادة الله بما تعنيه من الاعتكاف والتفرغ للعبادة بما يضفيه ذلك على العباد من سكينة ووقار وتضرع وخشوع ولين وألفة وتآلف ورحمة، ثم هى إلى جانب ذلك ملتقى طيب لبناء الإنسان وقضاء المصالح وتكوين الأمة، ووضع السياج المتين لوحدة وتقوى المسلمين. وفى القرآن الحكيم: " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ" (الحج: ٣٤).

ورسالة المساجد تستلزم رعايتها واحترامها، وهو ما فرضه القرآن المجيد بشكل عام، حض فيه فيما حض عليه على العناية بطهارة ونظافة المساجـد، وجعل ذلك أمرا واجبا.. يقول تبارك وتعالى:" يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١).

لقد أمر الله عز وجل، بتقديس بيوته ومنع العبث بها أو استغلالها فى غير ما أمر الله بها أن تكون، وقد رأينا فى أحداث السيرة ماذا كان من أمر أصحاب مسجد ضرار وما أرادوه به من تشتيت المسلمين والتفريق بينهم، وفى ذلك يقول القرآن الحكيم: " وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَواْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ١٠٧ ــ ١١٠).

والدفاع عن حرمة المساجد، جزء من رسالة الدفاع بعامة، حتى لا يختل الأمن فيها، فيقول سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (الحج: ٤٠).

مؤدى ذلك أن المسجد ركن من أركان الأمن المجتمعى، ففى القرآن الكريم " وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا "(آل عمران: ٩٧).. وفيه أيضا: " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ " (البقرة: ١٢).. لذلك كانت المساجد وبيوت العبادة ملاجئ للخائفين وملاذا يجدون فيها الأمن من الخوف أو الظلم.. ونرى فى السيرة النبوية أن الرسول ﷺ حرص يوم فتح مكة على التأكيد على حرمة مكة حيث البيت الحرام، فيخطب فى الناس قائلا: " إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك دما فيها أو يعضد بها شجرة، فإن أحدا ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: " إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلّت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب ".. وعما كان قد حدث من خزاعة لقتيل لهم فى الجاهلية، تحدث الرسول عليه السلام فقال: " يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شـاء مقتله ".

هذه فيما يسجل الباحث، من أهم أخلاقيات الإسلام فى احترام المقدسات، وتقديس الحرمات وعدم الاعتداء عليها أو على الأنفس، ينتقل الباحث من استشراف ما كان من أمرها منذ عهد النبوة، لينعطف على الحاضر، فيسجل أن دور المسجد قد ضعف فى الوقت الحاضر.. فلم تعد ممارسة دور المسجد

فى تربية الأمة كما كانت حين كانت قلوب الناس معلقة بالمساجد التى فيها تقام شعائر الصلوات، ومكان الرياضة فى الإسلام.

وبعد أن يتحدث الباحث عن خطبة الجمعة والدروس فى المساجد، وما تسهم به فى بيان أمور الدين والعقيدة، وبث قيم وأخلاق وشمائل الإسلام الكفيلة بتحصين المجتمع وكفالة أمنه، ينتقل إلى ما يستجد أحيانا من استغلال المساجد فى مسائل ضارة بالمجتمع، كإفساح المجال فيها للجماعات المتطرفة التى تمارس ضغوطها على الشباب والأطفال، وتملأ عقولهم بما يبتعد بهم عن الدين، ويختزل الإسلام فى الثوب القصير أو المظاهر الشكلية، ويشتط فيبث تكفير المجتمع ويوجب قتاله، وتشجيع الشباب على مجافاة التعليم فى المدارس والمعاهد والجامعات بقالة إنها تعلم علوما غربية أو ما لا ينفع.. ومثل هذه الممارسات تأخذ المساجد بعيدا عن رسالتها، وتؤثر بالسلب على أمنها وأمان المجتمع، مع أن المسجد هو مثابة المتدين الملتزم الذى يعرف الله ويتقيه حق تقاته ويراقبه فى أقواله وأعماله وأحواله، وهو ما يعبر عن رسالة المسجد الذى تؤدى العبادة الحقة فيه إلى أمن وأمان المجتمع، فيقر بصلاح أفراده وصلاح أمر مجموعه، وتتحقق السلامة للمجتمع.

إن المسجد هو بيت الله الذى جعله مكانا لعبادته والتقرب إليه، ومداومة الذهاب إليه تجعل الإنسان قريبا من خالقه ومن ثم عبداً ربانيا لا يؤذى ولا يهدد ولا يروع، ولذلك كانت لبيوت العبادة على مدار التاريخ حرمة خاصة تبتعد بها عن أعمال الشر والعنف والقتال.

ومن أسف تآكل الدور الرائع الذى أداه المسجد فى التاريـــخ الإسلامى، وانعكس ذلك على ضعف العقيدة فى قلوب الناس، وجعل البعض يتخذ من أمان المسجد درعاً لمباشرة الشر وترويع المجتمع وتهديد أمنه، بما يخرج بالمساجد عن رسالتها الهادية الآمنة التى ظلت تؤديها لقرون عديدة فى سلام وأمن وطمأنينة.

وهذه الظواهر الضارة التى طرأت، تستوجب من كافة الدول الإسلامية أن تحافظ على الدور الإيجابى الصالح الذى كانت تؤديه المساجد وتقدم فيه دستوراً للأخلاق الفاضلة التى يجب أن تسود بين المسلمين.. وأن خير تصوير لهذا الجانب تراه فى آيات سورة النور بين المسلمين.. حيث يقول الله عز وجل: " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَـاةَ وَارْكَعُو مَـعَ الرَّاكِعِينَ *" (النور: ٣٧ - ٤٣)

إعادة دور المسجد فى حياة الأمة مطلب بالغ الأهمية، يستلزم أداؤه على صورته المثلى الاهتمام المستمر بتثقيف وتدريب الأئمة والوعاظ، وتكريس الفهم الصحيح لرسالة المسجد فى بث الدين الصحيح، وربط النشء والمترددين بعامة على المساجد، بقيم الإسلام وجوهر رسالته التى تكفل صلاح الفرد والجماعة، وأمان المجتمع الذى ظل غاية للإسلام عبر القرون.. ترى بعض ذلك فـيما كتـبه الأستاذ عبد الله بن خالد آل خليفة من البحرين، عن دور الأئمة والمساجد فى معالجة الأمية المتفشية فى بعض الدول الإسلامية، وتراه فيما كتبه الدكتور عبد الستار دربسالى - مفتى قازا قستان، عن دور المساجد فيها قبل وبعد استقلال جمهوريتها، والاهتمام فيها ببث قيم دعم استقرار المجتمع وتكريس مفهوم الوفاق الاجتماعي بين التجمعات العرقية والاجتماعية

أو اللغوية، وترسيخ مفهوم حوار الأديان وتأكيد الجوانب المتكاملة فى الإسلام بشأن العقيدة والعبادات والأخلاق وأهمية الدين فى بناء المجتمع وتكريس التقدم على أسس من الإيمان والعلم والأخلاق. وهو ما دار حوله أيضا بحث الباحث الدكتور سعيد على حمدو الأمين العام للاتحاد الإسلامى للكاميرون، وأضاف إليه بحث الدكتور سالم محمود عبد الجليل رضوان تعميقا لبيان رسالة المساجد فى الحياة وكيف أنها جامعات شعبية ومعاهد تربوية علمية، تساهم إلى جوار بث العلم - فى حفظ وتقوية كيان الأسرة وتعليم أفرادها والمحافظة عليها ورعايتها لتكون لبنة صالحة للإسلام وإسهاما فعالاً فى تماسك وحفظ قيم وأمان المجتمع فى الإسلام.

الوسطية فى الإسلام
ودورها فى كفالة الأمن المجتمعى

استعرضت فى المقالات السابقة، قدر مستطاعى، ما ورد من بحوث فى ملف الأمن المجتمعى للإسلام، والذى بلغت صفحاته (١٢٧٠) صفحة.. وفى اعتقادى أن هذه الجهود المحمودة يحتاج تكاملها إلى حديث رأيت إضافته إلى هذه البحوث عن " الوسطية " فى الإسلام، باعتبارها أحد العوامل الأساسية فى أمان المجتمع وحمايته من الجنوح والتطرف، وعن شجرة " المساواة " التى يتساوى فى رحابها المسلم وغير المسلم، وتقى المجتمع من الاحتقان وفورات الإحساس بالظلم أو القهر أو الدونية، ثم أخيرا قدسية الروح فى الإسلام، وهى أحد الركازات الأساسية التى تحفظ أمان المجتمع وتبث الطمأنينة والسلام بين آحاده ومجموعاته.

والغلو والتطرف هو أخطر ما يهدد أمن المجتمعات، والتطرف إيغال فى البعد عن أواسط الأمور، وهذا من أسف واقع أحوال الناس، ذلك أن أفكار البشر وعقائدهم تجرى كما يجرى سلوكهم على قنوات وفى اتجاهات عدة قد تتطرف إلى أقصى اليمين وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليسار فى تيارات تختلف مسمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوسطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصر والبصيرة ويقبل عليـــه المهتدون والعقلاء.

والتطرف خلل واضح فى اتزان الآدمى، وخلل هذا الاتزان لا يحس به صاحبه فى الأغلب الأعم، إنما يشعر به من حوله ومن يتعاملون معه، فيحتاطون منه ويتحاشونه ما أمكنهم، ويتفادون مبالغته فى التعصب والعداوة والبغضاء والغضب والتصلب وغرابة الحقد، مثلما يتحاشون ولعه بالشدة والانتقام، أو يكرهون ما يبديه من شدة البخل والشح والتقتير على أهله أو

نفسه، أو من كثرة الإسراف والإفراط والإتلاف، أو ما يبالغ فى تأكيده والإصرار عليه من انتحال العظمة والأهمية، أو من ادعاء الجمال أو الكمال أو الغنى أو العلم أو الأصل أو الفصل !

خطـورة هـذا الخلل فى اتزان الآدمى تغدو أكثر أهمية وخطراً إذا ما أصاب الحاكم والقائد والقاضى والمفكر وأصحاب المهن الحرة، لأن هؤلاء يقومون بخدمات عامة للمجتمع ومؤسساته وتوابعها، وهـم وإن كانـوا يحملـون تبعات ما يقومون به أو يقدمونه وتنعكس عليهم، إلاّ أن الأضرار المترتبة على خلل الاتزان كبيرة أوصغيرة ــ تصب وتقع دائما على الناس كجماعات أو كأفراد !!

والوسطية هى صمام الأمان الحقيقى من كل صور التطرف والغلو، هذه الوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم وفضيلة إسلامية، وقد عاش الإسلام وعاش المجتمع الإسلامى فى أمان لأن الإسلام دين الفطرة والوسطية بلا تطرف ولا غلو ولا مغالاة.. عالج واقع الحياة وواقع الإنسان معالجة واعية متفطنة تستخرج من النفس الإنسانية خير ما فيها وتحاصر سلبياتها القائمة أو المحتملة، وتواجه الواقع بأفضل ما تصلح به الحياة والأحياء.. فى كل زمان ومكان.. والوسطية هى ضابط فكر المسلم وشعوره وسلوكه، فالوسط أو الوسطية هو الاعتدال والقوام بين النقائض أو بين الإفراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسطية سنة محمودة وغاية مرجوة لم تذكر فى شرعة الإسلام إلا فى معرض التزجية والتنويه والثناء.

إن الأمة الإسلامية قد تبوأت مكان الصدارة بين الأمم بدينها الذى اهتدت به وبنص القرآن الذى به شرفت: " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " (آل عمران: ١١٠).

هذه الوسطية ما كان لها أن تكون ركيزة للصدارة وسببا لمقام الشهادة على الأمم لولا أثرها كمقوم أساسى فى تكوين الشخصية الإسلامية بهداها

وسوائها وبصيرتها وإنصافها.. وهى الصفات التى تؤهل الأمة لما أعدها القرآن المجيد له وكرمها به.. فقد دلنا القرآن الحكيم على أن التوسط هو قوام الفضائل كلها من عقائد وعبادات ومعاملات.. وخصلة أصيلة من خصال المسلم، وإطار حميد فى مسائل العبادة والأخلاق والشعور والسلوك.

وفى القصد والاعتدال فى الشعور: " لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (الحديد: ٢٣)

وفى صفة عباد الرحمن المتوسطين فى انفاقهم بين السرف والتقتير: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا "(الفرقان: ٦٧)

إن " الوسطية " كمنهاج زكاه القرآن الحكيم وحث عليه المصطفى ﷺ ليست حجرا على العقول ولا هى غلق للاجتهاد أو دعوة للجمود، وإنما هى معيار موضوعى.. منار المؤمن فيه القرآن والسنة، وهما فيما أوصيا به لم يغلقا بابا للرأى أو بابا للاجتهاد ما داما فى إطارهما الصحيح الذى تمثل الوسطية سمة أساسية من سماته..

وإذ كان الرأى والاجتهاد مندوبا إليهما، فإن الوسطية حصن المؤمن فيم يراه وفيما يسلكه.. يقول المصطفى ﷺ: " خير الأمور أوساطها "، ويقول الإمام على وكان نجيبا فى مدرسة النبوة: " اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة وإليها مصير العاقبة هلك من ادعى وخاب من افترى ".

الوسطية ونبذ الغلو والتطرف ملمح رئيسى وأساسى من ملامح الإسلام، وسر من أسرار قدرته على احتواء كافة التيارات.

الوسطية، تمثل العدسة أو البوصلة التى تضبط فكر المسلم وخلقه وشعوره وسلوكه.. ومسئوليته أيضا.. ولم تذكر الوسطية فى شرعة الإسلام إلاّ فى معرض التزجية والتنويه والثناء.. من مقامها المحمود أن وصفت بها الأمة الإسلامية ذاتها.. " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس

ويكون الرسول عليكم شهيدا " (البقرة: ١٤٣) صدرت فلسفة الإسلام عن هذه الوسطية.. فى التنسك والعبادة..

"حافظوا علـى الـصلوات والـصلاة الوسـطى وقومـوا لله قـانتين" (البقرة:٢٣٨).

والمطالع للقرآن الكريم يلمح هذه الحفاوة بالوسطية فى ما زكى إليه من خصال وسجايا وأخلاق.. فالكرم وسط بين الشح والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والتواضع وسط بين الكبر والمذلة أو الاستخذاء، والحياء وسط بين الخور والوقاحة، والحلم وسط بين الطيش والقعود، والعدل وسط بين الظلم والمحاباة، والرفق وسط بين العنف والإضاعة. الوسطية فى الإسلام منهاج يجمع الشمائل بلا تفريط ولا مغالاة.. الغلو نفسه آفة مرفوضة.. يحذر منها رسـول الـقرآن فيقول: " إن هذا الدين متين ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه. فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى " الوسطية سجية محمودة.." " خير الأمور أوساطها ."

عناية الإسلام
بضبط السلوك الإنسانى*

مع عناية الإسلام بضبط السلوك الإنسانى، لم يعن بجانب ويهمل سواه.. واجه الواقع فى توازن لافت قوامه سجية الوسطية.. لم يتجاهل أن الإنسان روح وجسد، وأن لكل منهما وجوده ومطالبه.. لم يتجاهل الإسلام الجانب الجسدى أو الحسى فى الآدمى، ولم ينكر الرغبات، ولم يلغها، وإنما دعا إلى ضبطها.. ووافق فى تناسق وتوازن رائع بين المتقابلات.. بين الروح والجسد.. بين الفرد والمجتمع.. أشبع النفس البشرية وأعطاها حاجتها الروحية والمادية. عقيدة الإسلام ترتكز على المادة والروح معاً.. للمادية حقائقها. وللروح السمو والقيادة وضبط الرغبات المادية.. لابأس ولا إنكار ولا مصادرة على الرغـبات والمطالب، ولكنها محاطة بسياج من الضوابط والأخلاق بقيادة العقل والروح حتى لايتحول الآدمى عبداً للشهوات والحسيات فيفقد معنى وجوده. هذا الآدمى الذى يلتقى فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، فرد فى مجتمع.. للمجتمع حقوقه وللجماعة أولويتها وريادتها، ولكن الفرد فرد بذاته، له ذاتيته وعقله وفهمه ووعيه ومسئول عما يختار وعما يفعل.. ليس إمعة يندفع بلا وعى مع التيار أو يساير الركب بلا فهم.. الإنسان أمام الله هو المخلوق المسئول.. يقول عنه رسول القرآن: " لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ".

المسلم السوى، مدين للإسلام بوجوده الروحى وبوجوده المادى، ومدين له

---

* للتفصيل ــ رجائى عطية ــ عالمية الإسلام ــ ط ٢٠٠٣ ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر

أيضا فيما حفظه له من توازن بين وجوده الروحى ووجوده المادى، فمن وسطية الإسلام أنه وهو يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية حرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية، كما نهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها.. فى القرآن المجيد: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٧٧)." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ " (المائدة: ٨٧). الحياة الروحية فى الإسلام تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية، لا استغراق فى الجسد ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة، وإنما قوام بين هذا وذاك.

الدين يخاطب القادر وغير القادر، القوى والضعيف، والصحيح والمريض.. وضع الإسلام القواعد، وسن الأحكام، ولم ينس الرخص.. بل وحرص رسول القرآن أن يقول للناس: " فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه " يخرج إلى صحابته فرحاً مستبشراً يزف إليهم مانزل من سورة الشرح: "فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً .." يقول عليه السلام لهم:" أبشروا فلن يغلب عسر يسرين .." سن لهم القرآن القواعد والأحكام والحدود، ويدرأ فى نفس الوقت الحد بالشبهة بل ويقيم من حالة الضرورة عذراً عاماً يقيل الآدمى من تقصيره.. بل من خطيئته.." فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (البقرة: ١٧٣)" فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (المائدة: ٣)" فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)." الأنعام:١٤٥.. (" فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (النحل: ١١٥).. وفى الحديث: " الضرورات تبيح المحظورات ".. بهذه الوسطية، البعيدة عن التفريط أوالإعنات.. جعل صيام رمضان فريضة وركنا من أركان الدين، ولكن أبيح الإفطار للمريض والمسافر وجعلت الفدية للذين لا يطيقونه إلاّ بمشقة بالغة.. فالقرآن الذى قال: -" كتب عليكم الصيام " (البقرة:١٨٣) ــ هو هو للذى قال: فَمَن كَانَ مِنكُم

مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ " (البقرة :١٨٤) والقرآن الذى فرض الحج فريضة وركنا من أركان الإسلام لمن إستطاع إليه سبيلاً.." وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ "(آل عمران: ٩٧)..هو القرآن الذى يسر على الحجيج، فقال: " فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ." (البقرة: ١٩٦)

والقرآن الذى جعل الفدية مقابل الرخصة فى الصوم والحج، والذى قبل الكفارة فى الظهار والحلف واللعان والصيد فى الحرم ـ تيسيراً على الناس. (المائدة: ٨٩-٩٥)، (الأحزاب: ٤)، (المجادلة: ٢-٤) ، (النور:٣ ـ٢٥) إن القرآن الذى وضع المبادئ ورسم الحدود، هو هو الذى قال: " يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (البقرة: ١٨٥) " لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا." (الطلاق: ٧) ويقول صفى السماء، الرحمة المهداة:" إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، فسددوا وقاربوا ".

أراد الله تعالى بوسطية الإسلام.. الدين العالمى، أن يهدى الناس إلى خير ما تصلح به حياتهم، أن يرفع عنهم الحرج.." وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ من حرج "(الحج: ٧٨) مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ " (المائدة: ٦).. بهذه الوسطية والاعتدال، اتسعت دوحة الإسلام لتستخرج أفضل ما لدى القادرين والأصحاء والأقوياء والأغنياء وذوى العزم من استقامة وصلاح وعبادة وعطاء للإسلام وللمسلمين وللحياة، واتسعت هذه الدوحة أيضاً لتفسح للمرضى والطاعنين والضعفاء وغير القادرين والفقراء، ولتسد عجزهم أو قصورهم أو ضعفهم أو مرضهم برخص أباحها بل وأحبها

الله الذى أعلمهم نبيه المصطفى أنه تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه دون أن ينسلخ المسلم المرخص له عن واحة الدين أو ينغلق أمامه باب الرجاء فى اتساع رحمة السماء التى تجبر عجز العاجز ومرض المريض وشيخوخة الطاعن فى السن وتفسح لكل من صدق إيمانه وصح إخلاصه.. أليس واسع الرحمة ــ جل شأنه يقول فى قرآنه المجيد:" وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" (البينة: ٥)

هذه الواحة الإسلامية، لهذا الدين العالمى، لا تصد ولا تغلق أبوابها أمام كل راغب فى الهداية حتى وإن طالت لجاجته واشتد عناده.. بل إنها تحمى المستجير الكافر حتى يسمع كلام الله وتبلغه مأمنه.. "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ" (التوبة: ٦).. كفرهم وإشراكهم دال على جهلهم وانعدام علمهم، فإذا علموا كان العلم كفيلاً بجذبهم إلى واحة الإيمان.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتوقف دعوته قط عن" المجادلة بالتى هى أحسن ".. ولا تتسلخ بتاتاً من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع وهداية العقل والفؤاد والوجدان والضمير إلى الله الواحد رب العالمين.. لم ينتشر الإسلام هذا الانتشار الفسيح الذى عم الدنيا بعنف ولا بغلو ولا بقسر ولا بإكراه ولا بإجبار ولا بإرغام، وإنما انتشر الإسلام بوسطيته، وبالبيان والإقناع وبالرضا والتصديق والإيمان، وبهذه الروح الحية التى تكفل أمان الجميع فى المجتمع الإسلامى مستظلين بمظلة وارفة شاملة الحياة وجميع الأحياء إلى يوم الدين.

المســـاواة
والأمن المجتمعى فى الإسلام*

يعرف المتابع لأحوال المجتمعات أن معظم القلاقل والملمات والأزمات ترجع إلى فقدان إحساس الفرد بالمساواة، وضيقه من اختلال الموازين، وغلبة الحكام الأغنياء والأقوياء على المحكومين والفقراء والضعفاء.

من عظمة الإسلام، وضمان مقومات أمن مجتمعه، أنه إلتفت إلى أن تنوع الخلق لا حدود له، وتفاوتهم - من ثم - تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا إيقاف لسننه.. خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمورات وحضارات، وإلى فيافٍ وصحارٍ وقفارٍ.. إلى بقاع باردة، وأخرى حارة.. إلى أراض غنية، وأخرى بلقع.. يتجه إلى الذكور، وإلى الإناث.. إلى الشيوخ والكهول، وإلى الشباب والأطفال.. إلى المرضى وإلى الأصحاء.. إلى الفقراء وإلى الأغنياء.. إلى الضعفاء وإلى الأقوياء، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية، فكيف تكون بينهم" مساواة "، وكيف يلتئم هؤلاء جميعاً رغم هذه الاختلافات الهائلة والتفاوت الحتمى: الخلقى، والمكتسب -.. كيف يلتئمون جميعاً فى شجرة واحـــدة عمودها" المساواة" ؟!

عبقرية الإسلام، أن مبادئه تحل هذه المعضلة، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت، ولا تنزع عن الآدمى - فى الوقت نفسه - إحساسه بالانتماء، وعلـــى قدم المساواة، إلى هذه الشجرة الإنـــسانية التـــى عمادهـــا الإخـــاء والحريـــة والمساواة !

---

* عن كتاب عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط ٢٠٠٣

الآدمى ليس نسخة مكررة من باقى الآدميين، إنما يختلف بالضرورة عنهم ويختلفون عنه، يتفاوت وإياهم، ويتفاوتون وإياه على قدر حظ كل فرد من" المواهب" الخِلقيّة (بكسر الخاء) - أو من المزايا المكتسبة بالتعلم والدراسة والخبرة والاجتهاد. من المحال أن يكون الآدميون جميعاً نسخاً كربونية متماثلة، فالتنوع حتمى فضلاً عن أنه ضرورى لتدافع الحياة وتقاسم الأدوار فيها.. فكيف يمكن أن تتحقق المساواة بين غير المتساوين ؟!

وكيف يمكن أن تجرى سنن الأحياء، وتستقيم حوافز الناس ودوافعهم وبواعثهم إذا تساوى العالم والجاهل، والنشط والقاعد، العامل والكسلان، المجاهد والمتخاذل، الجاد والهازل، الساعى والخامل ؟!!

ثم كيف تكون " المساواة " - الشجرة الباسقة التى أرادها الإسلام بعالمية دعوته، لهؤلاء الناس جميعا على اختلافاتهم التى لا تبديل لسننها !!

لا يمكن لديانة سماوية أن تغفل الواقع وتتجاهله، ثم إن هذا الإنكار للواقع لن يؤدى إلى نتيجة مرجوّة، ويحمل فى ذاته معاول هدمه.. الناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - بالعلم والفضيلة، فلم ينكر القرآن الحكيم ذلك فقال:" هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (الزمر: ٩) " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " (المجادلة:١١)..

والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى العمل والكد والبذل والعطاء، فلم يشح القرآن المجيد عن ذلك، وقال: "أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ". (الأنفال: ٤).." ولكل درجات مما عملوا "(الأحقاف:١٩، (الأنعام: ١٣٢).. والناس متفاوتون - ولابد أن يتفاوتوا - فى الجهاد، فلم يتجاهل القرآن الكريم ذلك وقال:" لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ". (النساء: ٩٥).. والناس

متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى أنصبتهم من الرزق وأسباب المعيشة.. وفى القرآن الحكيم: " نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ " (الزخرف: ٣٢)..

بيد أن هذا التفاوت الذى يشير إليه القرآن المجيد، لا يترتب عليه الموافقة على إقامة الحقوق والواجبات على أساس التمييز، أو تصنيف الناس إلى طبقات !.. فأنت تلحظ أن القرآن المجيد لم يستخدم بتاتا لفظ " طبقة " أو "طبقات " - وإنما حرص على أن يحدد العبارة فى لفظ " درجة " أو " درجات ".. فلا طبقات فى الإسلام، ولا تمايز فى الإسلام بين طبقة وأخرى، أو بين عرق وأعراق أو بين جنس وأجناس، أو بين عصبيات، أو بين أغنياء وفقراء، أو بين أقوياء وضعفاء.. وإنما هى شجرة واحدة، لأسرة واحدة، يجمعها رباط واحد، لا فرق فيه بين إنسان وإنسان، و.. " إنما المؤمنون إخوة ".

وليس أجزى للإنسان، وأمان مجتمعه، من دين يطوى الناس فى أسرة إنسانية واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ بالعمل والتقوى، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال.. الإسلام أقر بوجود التنوع والاختلاف والتفاوت، وأعطى فى الوقت نفسه للمساواة حقها.. فى خطاب القرآن الحكيم إلى الناس كافة، لا إلى المسلمين خاصة، يقول الحق سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣)..

هذه الآية الجامعة، تلفت الأنظار إلى أصل الإنسانية الواحد، وهو حجر الزاوية الأول فى مبدأ المساواة بين الناس، وهو أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا " (النساء:١).. "وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة " (الأنعام: ٨٩).. "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" (الأعراف: ١٨٩).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد،

تتهدم به دعاوى العنصرية والعصبيات، وينفسح الطريق ممهداً واسعاً على مصراعيه للأخوّة الإنسانية التى لفت القرآن الأنظار إليها بين الناس جميعاً.. هذه الأخوّة، عماد المساواة، تسلس إلى الركاز الثانى فى مبدأ المساواة.. هذا الركاز ينصب فى مناط المفاضلة التى لا تكون إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، لا بالأعراق والأحساب والأنساب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) - حين ترتد المفاضلة إلى هذا الميزان فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعاً، فلا تخذل النشط العالم الساعى المجاهد التقىّ الورع، ولا تغلق فى الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره وإنما تبقـــى الباب مفتوحاً - وفى إطار الأخوّة التى تحدث عنها القرآن - لارتياد سبل التنافس والتبارى على نول المكانة التى معيارها الوحيد "التقوى والعمل الصالح "." وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين: ٢٦)..

عظمة وحكمة " المساواة " فى الإسلام أنها لا تبطل سنن الحياة، ولا تبطل سباق الأحياء فى صوالح الأعمال.. فلن ينقطع سباق الحياة بين الناس، مثلما لم ولن ينقطع التفـــاوت بينهـــم.. ولا معنى للتفاوت ولا للمساواة إذا تساوى القادر والعاجز، وتساوى العامل والخامل، وتساوى النشط والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ويقعد ولا يخاف على وجوده، والعامل يعمل ويكد ويتعب ولا يأمل أو يطمح فى أفضلية أو رجحان.. لذلك فإن المتابع للفلسفة القرآنيـــة يرى أن تقرير " الأخوة " و " المساواة "الإنسانية لم يمنع من التفاضل بين الناس، بيد أن هذا التفاضل لا يرتد إلـــى منصب أو جـــاه أو سلطان أو عصبية أو أعراق أو قوة أو بطش أو جبروت، وإنما مناطه الوحيد هو" العمـــل الصالح ".

أدلة معيار المفاضلة، وانحصارها فى " العمل " لا فى العرق أو النسب أو الجاه أو السلطان، أدلة متعددة أيضا فى السنة المحمدية.. معيار المفاضلة بين الناس إنما هو فى أعمالهم لا فـــى " أنسابهم ".. وفى الحديث:" ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على

أحمر - فضل إلاّ بالتقوى" -.. يتحدث النبى عليه السلام إلى قومـــه بنى هاشم . فيقول لهم: " يابنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكـــرمكم عند الله أتقاكم ".

معيار " العمل " كمناط للمفاضلة، وبث حوافز الحياة، ودفع حركتها - يتماس معه أيضـــا ما يكون مرده إلى اختلاف الأحوال أو الظروف فيحسبه البعض دالاً على عدم مساواة فى الإسلام، بينما هو لب وجوهر" المساواة" التى يتوجب عليها أن تدخل فى موازينها هذه الفروق الناجمة عن اختلاف الظروف والأحوال لترد الجميع إلى " المساواة " التى منبعها " الأخوّة" الإنسانية وتساند وتكافل الناس. إن الفاهم المدرك لمبدأ المساواة فى الإسلام، سوف يدرك أن الإسلام قفز بالبشرية كلها إلى الأمام إعلاءً لهذا المبدأ، وسوف يفهم أنه سبق الشرائع جميعاً فى تقرير المساواة بين المرأة والرجل، وسيفهم أن" قوامة " الرجل المقررة فى القرآن ليس مردها إلى تفرقة وتمييز، وإنما إلى تقسيم واجبات وأعباء، وتقنين لما تستقيم به أحوال وشئون الأسرة.. من يتأمل معنى وغاية الحديث النبوى:"الضعيف أمير الركب "سوف يدرك أنه ليس تمييزاً لضعيف وإنما هو تقرير لواجب الأصحاء أو الأقوياء فى رعاية الضعفاء.. فليس يستوى الضعيف والقوى فى الركب، القوى قادر بينما الضعيف لا يقدر، لذلك كانت "المساواة" تعنى لـــدى الإســـلام أن يكون الضعيف هو أمير الركب، ليَجْبر الصحيح القوى - ضعف المريض أو الضعيف، ولتكون " المساواة " المقصودة المرعية هى التى ترد الناس إلى " الأخوّة الإنسانية " فى صورتها الرفيعة السامقة !

"القدرة" فى شرعة الإسلام، تكاليفها ثقيلة، وأعباؤها جسيمة، لذلك فإن الإسلام حين يفرض واجبات أو قوامة أو أعباء أو مهام على القادر، إنما يفرضها رعايةً لمبدأ المساواة وتحقيقاً له فى صورته السامية لإعادة السواء - بروح الأخوة الإنسانية - لما ينبغى أن يكون بين الناس، وهذا المَعْلم الإسلامى، هو من أهم خصائص عالميته وأمان مجتمعه فى إطار يفهم منه الناس جميعاً

على اختلاف خلقتهم ومواهبهم وحظوظهم وملكاتهم وقدراتهم وعلمهم وفهمهم وطاقتهم - أنهم سواء فى واحة الإسلام، لا فرق بين غنى وفقير، ولا قوى وضعيف، ولا تفاضل بالأعراق، ولا بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء، وإنما كل بقدر عمله وبذله، فإن قعد به عجز، أو مرض، أو ضعف، أو غير ذلك، تداركته المساواة الإسلامية بروح الأخوة الإنسانية التى تبذل له ما يعينه على مرضه أو ضعفه أو عجزه أو غير ذلك من العوارض !

هذه المساواة الإسلامية، فى شجرتها الباسقة، لم تقف فقط عند المعانى والمقاصد التى تتوقف عندها دساتير اليوم، وإنما جاوزتها إلى ما يلحق بها كل مساندة أو عون أو جبر أو كفكفة عن مريض أو ضعيف أو عاجز، ولتلحق الجميع بالمجتمع الإسلامى - فى دوحة آمنة يتساند الكل فى ظلها بأخوّة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام.. هذه الأخوّة الإنسانية التى عبر عنها نبى القرآن بقوله: " من آذى ذمّيا فأنا خصمه يوم القيامة ".. هذه الأخوّة التى تنتمى إليها المساواة التى لا مفاضلة فى رحابها إلاّ بالتقوى وصالحات الأعمال.. الكل أمام القانون وأمام القضاء سواء، والكل فى الأعباء العامة وفى الضرائب سواء، والكل فى تولى الوظائف العامة وفى العطاء سواء، والكل فى الخدمة العسكرية سواء !

شجرة الحقوق والمساواة فى الإسلام

شجرة حقوق الإنسان فى الإسلام، تقوم كما رأينا على جناحين. الأول: مبدأ المساواة، والثانى: وحدة الأصل البشرى.. لم يعبر كتاب من كتب الأديان عن وحدة الأصل - مدخل المساواة ــ كما عبر عنه القرآن المجيد، ولا اعتبر الناس إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة كما اعتبرهم القرآن الحكيم. لذلك لم تمس الاختلافات بين البشر، وهذه سنة كونية، ما بينهم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة كل فوارق.. الإنسان الفرد، أمام الإسلام، قيمة فى ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان.. الكل سواء أمام الله، وأمام القانون.. من حرص الإسلام على هذه المساواة، ورفضه الطبقية بشتى صورها وأشكالها، أنه لم يجعل للدين أو رجاله طبقة، ولم يقبل أن يكون لهم طبقة.. فلا كهانة فى الإسلام، ولا واسطة بين العبد وربه.. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كاهن ولا حبر إلاّ اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلب منيب.. إن أعياه التعرف على شىء، فأمامه أهل الذكر والعلم، يلجأ إليهم - بلا كهانة - ويتلمس لديهم ما قصر عنه علمه أو فهمه.. فالقرآن المجيد يقول: " فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ". (النحل: ٤٣).. فلا مصادرة على المؤمن فى النظر والتأمل والتفكر، ولا سلطان عليه غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فضيلة أهل العلم ليست فضيلة طبقة ولا سلطة، وإنما فضيلة اتساع علم وقدرة على البيان والتوضيح والإرشاد والموعظة الحسنة..

المساواة أمام القانون، فرع على هذه الشجرة الوارفة التى يتساوى فيها أفراد الأسرة الإنسانية، يعبر عنها نبى القرآن عليه السلام فى حديث بالغ

الدلالة، محدد العبارة، قاطع الحكم، يمتد بصريح عبارته إلى الناس كافة لا إلى المسلمين خاصة.. يقول عليه الصلاة والسلام:" الناس متساوون كأسنان المشط ".. فى دوحة القرآن لا تحل الكلمات محل الأعمال، فلا قيمة لكلام مزخرف لا يقابله واقع حاصل مطبق.. فى القرآن الحكيم: "كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ". (الصف: ٣).. من يراجع السيرة المحمدية، وسيرة الراشدين، يرى صورة مثلى لمصادقة الأفعال والأعمال للأقوال.. فى مرضه الأخير، خرج النبى صلى الله عليه وسلم متحاملاً على نفسه إلى المسجد ليقول للناس: "يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فيأخذ منه. ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى، ألا إن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس ".. وهو هو - عليه السلام - الذى رفض غاضباً وساطة حبه أسامة بن زيد لإعفاء فاطمة المخزومية القرشية من حد السرقة، وقال للناس:" إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد" !!

ولا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمّة الذين يقيمون فى دار الإسلام.. فهم أحرار فى عقائدهم وفى إقامة شعائرهم وفى ممارسة نشاطهم وفى ولاية الوظائف، ولهم أيضا نصيبهم فى بيت المال، ويتمتعون بمظلته التى تقيهم العوز والحاجة. روى عن الفاروق عمر عليه الرضوان أنه صادف شيخاً يهوديا ضريرا يتكفف الناس، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه:" انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ! ".

إحساس الناس، فى واحة الإسلام، بأنهم متساوون أمام القانون، نابع من منظومة قرآنية تعاضدها السنة النبوية، ونابع أيضا من تطبيقات متتالية كرست لدى الناس أنهم أمام القانون سواء، وأن هذا هو حقهم جميعاً فى الإسلام

الذى لا يجامل فى هذه المساواة أحداً مهما بلغت مكانته أو اشتدت عزوته أو ثارت خشية أو مخاوف من معاداته للإسلام أو نكوصه عنه.

يساوى المجتمع الإسلامى بين الناس فى تولى الوظائف العامة، لا يميز أحدا لنسبه أو لعرقه أو لحسبه أو لماله، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم من المحاباة فى اختيار الولاة وأرباب الخدمة العامة، فيقـول: " من ولى أحداً محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعـة المؤمنين ". لا إيثار لأحد لجنسه ولا لماله أو جاهه أو مكانته أو عزوته !

هذه المساواة فى تولى الوظائف العامة تنطلق من المبدأ العام لمعنى المساواة فى الإسلام.. ليس معناها أن يُقدم الجاهل على العالم فى ولاية الوظائف، ولا أن يُقدم الفاسد على الصالح، فولاية الوظائف أمانة، والاختيار لها يخضع ويجب أن يخضع لمعايير ضمانا لحقوق الناس الذين تبذل الوظائف العامة من أجل رعاية مصالحهم.. وفـى القرآن الحكيم:" إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمِينُ" - ويقول أهل الفقه والنظر إن كل ولاية بحسبها، فإن كانت الوظيفة للمال قدمت الأمانة، وإن كانت لقيادة الجيوش قدمت القوة.. وفى جميع الأحوال فإن الاختيار أمانة للصالح العام.. من أجل ذلك لم يتحرج رسول القرآن عليه السلام من أن يقول لأبى ذر الغفارى على حبه وإيثاره له حين طلب ولاية:"يا أبا ذر إن بك ضعفا، وإنها أمانة، وإنه يوم القيامة خزى وندامة - إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيهـا ".

هى إذن ليست مساواة حسابية وإنما مساواة قانونية لا تفرق بين الناس لجنس أو حسب أو لون أو جاه، وتختار الأصلح بغض النظر عن أى اعتبار من هذه الاعتبارات.

وصاحب الوظيفة ذاته، لايتميز على الناس، ولا يفضلهم بشىء، حتى وإن كان أميرا عامـا للمؤمنين.. يسمع الناس فى الإسلام، أبا بكر الصديق يقول للناس يوم ولوه الخلافة: " لقد وليـت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت

فأعينونى ! وإن أسأت فقومونى ".. ومن بعده سمع الناس للفاروق رضى الله عنه يقول لهم: " إنما أمير المؤمنين رجل منكم ولكنه أثقلكم حملا ".. فهم هؤلاء من إمام مدرسة النبوة صلى الله عليه وسلم أن ولاية الوظائف العامة واجب وحمل وتكليف وليست تسلطاً، وأن قوامها العدل والحق والمساواة، وليس السيف أو السوط أو هـوان عباد الله !

هذه المساواة الإسلامية، امتدت إلى كل المظاهر فى الحقوق والواجبات.. فى العطاء، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية، وفى الضرائب، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة، وفى حق كل منهم فى بيت المال.. لا تميز السياسة العامة للمال فى الإسلام بين الأفراد فيما يستحقون وفيما يأخذون كل بحسب عطائه وبحسب نصيبه ،لا يُمنح أحد ويُحرم آخر، ولايفرق بين ذكر وأنثى، أو بين مسلم وذمّى.

النبع المستقى منه هذا وغيره من أحكام المساواة، يرجع إلى واحة ظليلة وارفة، وضعها القرآن المجيد، ونهض عليها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم.. يأبى عليه السلام علـى الناس أن يعظمـوه، ويقول لهـم: " لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ".." إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس ".. يقول حانيا رفيقاً لمـن أخذتـه الرعـدة مـن هيـبته: " هـون عليك يا أخى، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كـانت تأكل القديد فى مكة ".. يجالس عليه السلام أصحابه من العبيد والفقراء والمساكين، يحنو عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ويرفض دعـوة قريش للتعالى عليهم.. يخصف نعله بيده، ويكنس بيته، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويؤاكل خادمه أنس بن مالك، ويرفض أن يتميز على أصحابه.. يسبقهم فى حفر الخندق ونقل الأحجار فى غزوة الأحزاب حتى عفر التراب جبينه، ويسبقهم إلى تحضير الطعام ولا يأنف من جمع الحطب والوقود، ويأبى دعوة أصحابه إليه أن يحلوا محله، ويقول لهم:" أعلم أنكم تكفونى، ولكن الله يكره من العبد أن يكون متميزاً على أصحابه ".. يسبق صحابته إلى مواطن

الخطر فى الجهاد، حتى قال على بن أبى طالب نجيب مدرسة النبوة: " إنا كنا إذا اشتد البأس، وحمى الوطيس، واحمرت الحدق، احتمينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلـى العدو منه ".. فى بناء المسجد بالمدينة يراه المسلمون يده مع أيديهم فى البناء، يجمع ويحمل معهم الأحجار من هنا وهناك، ويشاهده أحد المسلمين عارضاً لبنةً على بطنه، ويظن أنها شقت عليه، فيطير إليه يقول لـه: يا رسول الله ناولنيها.. بيد أنه صلى الله عليه وسلم يأبى عليـه ويجيبه: " خذ غيرها، لا عيش إلاّ عيش الآخرة "، فلما ألحّ عليه، قال له عليه السلام" اذهب فاحتمل غيرها فإنك لست بأفقر إلى الله منّى ! ".

هذه الواحة الوارفة للمساواة فى الإسلام، معلم أساسى من معالم عالميته التى تتسع للناس جميعاً على امتداد المكان والزمان !، وركيزة أساسية لأمان المجتمع الإسلامى الذى يحس فيه الفرد بانتمائه إلى المجموع بغير تمييز ولا محاباة ولا تفاضل ولا تظالم، وإنما قـوام التقدير: " التقوى والعمل الصالح ".

الأديان المتجهة إلى أقوام، أديان مغلقة، لاتعطى للآدمى ما يعطيه الإسلام من إحساس عميق بآدميته وبانتمائه والناس طراً إلى أصل واحد، وانضواؤه وإياهم فى أسرة واحدة - لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عرقه أو لونه أو حسبه أو نسبه أو عملـه أو منصبـه أو جاهـه أو ماله أو ثرائه.. هذه" المساواة " هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، أنهم فى ظل دوحته الوارفة، يلتئمـون جميعاً فى شجرة واحدة عمودها وأمانها المساواة، وأنهم فى رحاب هذا الدين العالمى ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى رحاب الله وفى إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة وعمادها الإخاء والحرية والمساواة !

قدسية الروح
والأمن المجتمعى فى الإسلام *

تصب جميع المبادئ وآليات الأمان المجتمعى التى يحرص عليها الإسلام، فى أمان الإنسان على روحه ونفسه وبدنه وعرضه وماله، فهذا الأمان، هو غاية المبادئ والقواعد والأحكام والآليات.. يأتى فى المقدمة أمان الإنسان على روحه، فالروح هى الأصل والأساس، لذلك لابد لكمال الحديث عن الأمن المجتمعى، من بيان منابع وأسس قدسية الروح فى الإسلام.

تقديس الإسلام للروح الإنسانية، هو فرع على تكريمه للإنسان، ومعلم أساسى من معالم عالميته وأمان مجتمعه.. لا يطلب الآدمى من الدين أكثر من أن تكون روحه فيه - وروح سواه - روحاً عزيزة مقدسة محل احترام ورعاية وحماية.." الحياة" فى الإسلام هى هبة الخالق البارئ جل شأنه.. وهى نفحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً ... فى القرآن المجيد: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ".. (الإسراء: ٧٠).. هذه الروح التى خلقها الله، أمرها بيد الله، لا يجوز لغير الله أن يعترض وجودها أو يجهضها أو يمسها أو ينهيها.. فى الإسلام، روح الآدمى - أى آدمى مهما كان عرقه أو ديانته - هى روح الناس جميعاً.. إجهاضها هو إجهاض للحياة، وإزهاقها هو اعتداء على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه.. من هنا، نوه القرآن الحكيم إلى أن القتل ليس حسبه أنه عدوان على حياة المقتول وكفى، وليس إزهاقاً

---

* عن كتاب عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط٢٠٠٣

لروح أزهقت بغير حق وكفى، وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها !!!.. ومن يحترم الروح الإنسانية، ولا يمسها، ولا يزهق الحياة فيها، فكأنه أحيا الناس جميعاً.. فى القرآن المجيد يقول رب العزة:" أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ".. (المائدة: ٣٢).

هذه الحياة - المنحة الربانية - المقدسة، محوطة برعاية وحماية محكمة فى الإسلام.. إزهاق الروح - أى روح - من أكبر الكبائر فى الإسلام، ومن أبشع الجرائم فى شريعة الله.. فرض الله تعالى لها قصاصاً يرهب ويثنى الناس عن استباحتها أو الاستهانة بحرمتها.. يقول الحكم العدل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى" (البقرة: ١٧٨).. القصاص لغة يعنى المساواة، أى أن الجزاء من جنس العمل أو الجرم.. القصاص تتبع للجانى بالجزاء العادل، وللمجنى عليه أو ذويه بالشفاء.. القصاص عدالة.. وجزاء وفاق للجريمة، فالقتل اعتداء متعمد أزهق روحاً خلقها الله، فتكون العدالة أن يؤخذ الجانى القاتل بمثل فعله !! هذا القصاص لم يفرض للنكاية أو الانتقام، وإنما عقاباً عادلاً ورادعاً، حكيماً واعياً، وأحكم ما فيه ونبه إليه القرآن المجيد أنه فى واقعه سبيل للحياة، لأنه حماية لها - بالردع والجزاء - من تغول المتغولين وعدوان المستهينين بالحرمات الإنسانية وبأرواح عباد الله.. فى القرآن المجيد:.." وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: ١٧٩).. الردع فى العقاب يجرى على محورين، ردع خاص يتجه إلى الجانى الذى أخطأ وتعدى على حقوق أو حيوات الناس، والردع العام الذى يحذر الناس.. كل الناس من مغبة الجريمة والاعتبار بأن الجانى الملاحق بعقاب الدنيا والسلطة الحاكمة، ملاحق أيضاً بعقاب السماء.. قد يستطيع الجانى أن يتوارى عن الناس بجرمه، وأن يفلت بالتالى من عقاب الدنيا، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يفلت من عقاب الله الذى يعلم السر وما يخفى.. فى القرآن المجيد: "وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا".. (النساء: ٩٣).. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقى جزاءه فى الدنيا بعقاب ينزل به، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه منه، أو بعفو يبذلونه له !!.. وفى صحيحى البخارى ومسلم، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بياناً منه لبشاعة القتل وفداحة جرمه الذى ينتزع روحاً خلقها الله - كان يقول: " ليس من نفسٍ تُقتل ظلماً - إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل ".. فى الحديث الشريف أن كل الآدمى على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه:" لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق ".. " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار. ".. يحذرهم عليه الصلاة والسلام فيقول لهم: "إن قتل النفس التى حرم الله" - من السبع الموبقات !!

ملاحقة القاتل بهذا الترهيب متعددة فى الإسلام.. فى القرآن المجيد: " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ".. (المائدة: ٤٥).. نفس الآدمى كما هى عزيزة عليه فإنها عزيزة على سواه، وكما هى غالية عنده فإنها غالية على غيره.. احترام الآدمى لروحه وحرصه عليها، يجب أن يردعه عن المساس بأرواح الآخرين.. إذا علم أن قبض روحه الغالية عليه هو هو ذات الجزاء العادل على إزهاقه روحاً أخرى، ردعه هذا عن المساس بأرواح الناس !

* * *

عناية الإسلام بمواجهة ومحاصرة آفة الثأر، عناية تنبع من تقديسه للروح الآدمية.. صحيح أن الإسلام لاتواجهه مشكلة " الثأر" فى المجتمعات المتحضرة المتنورة التى لا تنخر فيها عصبية " القبليات " وما تؤدى إليه من تعصبات ضريرة عمياء كانت ولا تزال وراء نار الثأر، بيد أن " القبليات " معضلة تعانى منها المجتمعات، وكانت تعانى منها شبه الجزيرة العربية وما حولها، ولا تزال تعانى منها مجتمعات أخرى هنا أو هناك.. كان على الإسلام أن يواجه - وقد واجه - هذه المعضلة التى كانت شائعة بمجتمعات الجاهلية التى

ضربت القبليات بعمق فى عاداتها وموروثاتها وتملكت من الناس فيها حتى صار التغنى بالقبلية والانتصار لها فى الحق وفى الباطل هو الصورة المعتقدة للبطولة، لا علاقة لها بالحق ولا موجباته، ولا بالعدل ومعادلته. ولا بالعقل وما يهدى إليه.. يعبر عن ذلك الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم حين يقول:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطيناً
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... كذاك البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ... تخر له الجبابر ساجدينا

لا يلتفت الثأر - فى عماه وضلاله - إلى الحق والعدل، ولا إلى البرىء والمذنب، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز، فإن ميز - فليس لإيقاع الثأر بمن فعل وتجنى وقتل، وإنما بمن تكون " الوجيعة "

فيه أثقل من الوجيعة فى غيره.. سواء فعل أم لم يفعل..فلا شأن للثأر بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجعة للقبيلة المضادة.. وهذا هو أخطر ما يقوض أمان المجتمعات.. يتجلى ذلك حين نلاحظ أن قضايا الثأر قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك بما يسمى بالاتهامات الثأرية !!.. فالقتل الثأرى تقابله اتهامات ثأرية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. لتبقى النيران مشتعلة إلى أن يحين الحين لواقعة ثأر مضادة، لتتوالى الواقعات. الطالب اليوم مطلوب غداً، وهكذا دواليك !! دون ما نهاية منظورة، إلاّ العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويقوض أمان المجتمع، ويورد الجميع موارد الهلاك !!

* * *

جذور الثأر والانتقام الأعمى ترجع إلى موروثات قديمة عانت منها المجتمعات والقبليات الجاهلية، لم يكن جنون الثأر يتوقف عند معنى العدل، فلا شأن لأصحاب الثأر به، يطلبون غير القاتل بالقاتل، والعدد أو الكثرة بالواحد..

يروى أن واحداً قتل آخر من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل لاسترضائه. وقالوا له: ماذا تريد ؟ قال: إحدى ثلاث. قالوا: وماهى ؟. قال: إما أن تحيوا ولدى. أو تملأوا دارى من نجوم السماء، أو تدفعوا إلىَّ جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنى أخذت عوضاً !

فى حرص على قداسة الروح الإنسانية وتحريم القتل، لم يفرّق فى جزائه وعقابه بين من يقتل ابتداء، وبين من يقتل ثأراً.. القاتل لا يعفيه الثأر الذى يدفعه - لا من عذاب الله، ولا من عقوبة القانون. لا يقتصر العقاب على من يقتل بريئاً وهو عالم ببراءته، ولا على من يقتل مشتبها فيه بغير بينة، وإنما يمتد إلى كل إزهاق للروح التى حرم الله قتلها إلاّ بالحق - مهما بلغ اعتقاد الآخذ بالثأر بأنه ينزل ثأره على " شخص " من يستحقه. فهيهات أن يكون لآحاد الناس سلطة ولا مقدرة ولا إمكانية تحديد الجانى المطلوب الاستيفاء منه تحديدا يبتعد عن الهوى ويتوسد الدليل والبينة.

إن الثأر الذى حاربه الإسلام هو استسلام لعادات اجتماعية موروثة من الجاهلية - ضالة وخاطئة، ولمفاهيم مغلوطة عن الرجولة والشجاعة.. يتصور البسطاء، ومن أسف بعض المتعلمين، أن الثأر بطولة وشجاعة ورجولة ترفع عاراً.. مع أن الثأر هو العار نفسه، لا بطولة ولا شجاعة فيه.. الآدمى لا يركبه العار لكونه قويا ذا عزم استطاع بقوته وعزمه أن يكبح جماح غضبه ولم يستسلم لضلالة عمياء تدفع إلى إغضاب الله بمخالفة دينه وشريعته وإعمال التقتيل فى أرواح خلقها الله ولا يملكها سواه.. الآدمى لا يركبه العار لاحترام القانون وتفهمه أن تحديد الجانى وعقابه منوط بسلطة القضاء الذى يبحث ويدقق وينزل العقاب حيث ينبغى أن ينزل، وإنما العار يركب من يخالف دين الله وأوامر الله ويغتال الأرواح بضربات عشواء تعمل التقتيل فى الأبرياء إشفاءً لغليل ضال مضلل.. العار أن يكفر الآدمى ويقدم على هذه الكبائر وينهى حيوات خلقها ويملكها الله !!

يعلمنا الإسلام، الذى يقدس الروح الإنسانية - أنه لا ينتمى للشجاعة والبطولة قتل الناس غيلةً.. القتل ثأراً هو فى واقعه اغتيال مباغت - فى معظم الأحوال لأعزل - لا مواجهة ولا منازلة ولا مخاطرة ولا شجاعة ولا رجولة فيه. مهم جداً أن يفهم البسطاء، وأن يعى المتعلمون، أن هذا العمل هو العار ذاته، وأنه لا ينتمى لشجرة البطولة أو الرجولة أو الشجاعة. إذا فهم الناس ذلك، لم يبق إلاّ سلطان العادات الاجتماعية الجهولة الموروثة، ولا يقدر على منازلة هذه العادات والمفاهيم الخاطئة الضالة - سوى الدين. الدين هداية تستقر فى القلب والوجدان والضمير. الدين الإسلامى، بنوره وهدايته، هو الذى قضى سلفاً على كفر وشرك الآباء والأجداد، وهو الذى خرج بالناس من دياجير الظلام إلى نور الهداية.. الدين بما فيه من نور وهداية، وقواعد وأحكام، وبما له من قوة ومن تأثير على النفوس والعقول والأفئدة، قادر على أن يواجه ويهزم هذا الواقع الاجتماعى الجهول الأعمى، وتحقيق أمن وأمان المجتمع.. ولو استقر فهم الإسلام فى النفوس لتآكلت وسقطت من تلقاء نفسها هذه المفاهيم المغلوطة الضالة التى تدفع الجهلاء إلى الثأر المجنون الناجم عن الجهالة العمياء التى تسوق إلى ضلالة جزاؤها عند الله نار جهنم خالدين فيها أبداً وبئس المصير !.. تعلمنا مبادئ الإسلام أن القوة الحقة، والبطولة الحقة، هى فى الصبر والعزم وكظم الغضب والإيمان بأن الله تعالى.. المهيمن العزيز، الفتاح العليم ،السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير.. هو سبحانه الكفيل بإحقاق الحق والعدل، وأن الجانى أيا كان احتياطه، لابد ملاق جزاءه.. فى الدنيا وفى الآخرة، وأنه إذا كان عذابه فى الآخرة مقطوعاً به، أخبر عنه القرآن المجيد، فإن الالتفات الجاد إلى معاونة العدالة بدلاً من تجاهلها، كفيل بتحقيق أمن المجتمع، وكفيل بأن تصل السلطة القضائية إلى غايتها، وأن تحدد الجانى، وأن تنزل به العقاب الواجب، بدلاً من أنهار الدم المسفوكة هنا وهناك فى دائرة لا نهاية لها من العنف والثأر المجنون !!

لقد واجه الإسلام بحكمة ورشاد - القبليات المقيتة التى شاعت فى الجاهلية ليقتلعها ويداوى آثارها.. لفت الأنظار إلى أن الناس جميعاً أبناء أصل واحد وأسرة واحدة.. خلقهم الله تعالى من نفس واحدة.. ، وقال فى قرآنه المجيد:.. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء "..(النساء: ١).. أصل الإنسانية أمة واحدة" وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ " (يونس: ١٩).." كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ " (البقرة: ٢١٣).. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣).

حرص الإسلام فى محاربته لآفة الثأر على أن يلفت نظر الآدمى إلى الأخوة الإنسانية التى تسمو على ما عداها، ولا محل إزاءها للتمسك بقبليات لأنها على ضوء " الأسرة الواحدة " التى تنتمى إليها البشرية - لا تعدو أن تكون قرابات وقتية عارضة فى زمن ما، تنحسر لتصب فى النهاية فى الأسرة الإنسانية الكبرى التى تضم الناس جميعاً بلا عصبيات ولا قبليات ولا أعراق.. هذه الأخوة الإنسانية تشكل معلماً أساسياً من معالم احترام الإسلام للروح الإنسانية ورعايته لها.. فضمور القبليات يصب فى النهاية ضد عادة الثأر وما تسفكه من دماء وأرواح، ويحض الناس على الاحتكام للقانون بدلاً من شرعة الغاب، بذلك حفظ الإسلام للروح الإنسانية قداستها وحماها من نيران الثارات وكفل للمجتمع الإسلامى أمنه وأمانه.

رأينا كيف أن القرآن المجيد قد جعل لنا فى القصاص حياة، لأنه بالردع الخاص وبالردع العام يرد الناس عن الاقتداء بالقاتل أو القتلة، ويغلق أبواب المحاكاة فى الشر والقتل والاستهانة بالأرواح !!.. كذلك جعل القرآن لنا حياة فى سعيه للقضاء على القبليات، مثلما جعل لنا حياة فى سياسة " العفو " الذى أباحه للمجنى عليه أو ذويه فى جرائم النفس.. لتطبيب وتضميد الجراح. تطبيب الجراح والتصالح عن رغبة وإرادة يغلق باب الثارات، ويحافظ على

حيوات الناس، دون إخلال بحساب الجانى عند الله فى الآخرة.. فى المجتمعات القبلية لا تنغلق أبواب ولا ويلات الثارات، ونتيجتها سفك الدماء وحصد الأرواح.. يقتلون العدد بالواحد، ويأخذون الإنسان بالبهيمة، ويستهدفون بالثأر من لا وزر له ولا ذنب ولا جريرة ما دامت وجيعة القبيلة الأخرى فيه أشد من وجيعتها فى سواه من أبنائها.. هذه الثارات وويلات ودمار وإعدام للحياة.. غلقها هو بعث للحياة وحرص عليها من هذا الانفلات الأعمى الذى لا يبقى ولا يذر.. والعفو الذى أباحه الإسلام للمجنى عليه أو ذويه سياسة ينبع من فهم حكيم عميق لسلبية العصبيات القبلية وعماها الضرير.. هى سياسة تخير بين القصاص والعفو.. والخيرة ترضى وتضمد وتطبب الجراح..

مع حرص الإسلام على الترهيب من وزر القتل. وعقابه دنيويا بالقصاص، والترهيب من جزاء الآخرة.. فإن الإسلام فتح بسياسته الحكيمة أبواباً لحقن الدماء حفاظاً على الروح الإنسانية التى يستخرج القرآن المجيد والسنة المطهرة أطيب ما فيها لارتضاء الصلح وبذل العفو.. فمع قول القرآن: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ".. (البقرة: ١٧٨).. وقوله: " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ ".. (البقرة: ١٧٩).. فإنه يحث على الصلح والعفو، ويدعو إليهما.. يقول القرآن المجيد: " فمن عُفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " (البقرة: ١٧٨).. فى السنة الشريفة أنه صح عن أنس رضى الله عنه أنه قال: " ما رفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فيه قصاص، إلاّ أمر فيه بالعفو ".. العافى الذى يصلح أجره وثوابه على الله - " فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ " (الشورى: ٤٠).. فى عموم العفو كسجيةٍ عامة.." خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.. (الأعراف: ١٩٩).." وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ".. (البقرة:٢٣٧).." وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ".. (التغابن: ١٤).." إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ".. (النساء: ١٤٩).." وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَاللَّهُ لَكُمْ

" (النور: ٢٢).. وقد وصف القرآن المؤمنين بأنهم العافون عن الناس فقال فيهم:.. "وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ " (آل عمران: ١٣٤)..

* * *

العفو فى جرائم النفس، فرع على سجية عامة هى سجية " العفو " التى أخذ بها الإسلام فى مواضع كثيرة حرصاً على بث السلام وحفاظاً على الوشيجة والآصرة الإنسانية، على أن العفو فى جرائم النفس يلتئم مع القصاص فى غاية كبرى هى الحفاظ على الحياة الإنسانية.. جعل الله لنا فى القصاص حياة، وجعل لنا أيضاً فى العفو حياة، بغلق باب الثارات وحصد الأرواح وسفك الدماء.. دون أن يهمل النذير للجانى بأنه إن أفلت من عقاب الناس والدنيا، فلن يفلت من عقاب الآخرة.. بل هو عند الله تعالى آثم ومغضوب عليه وملعون.. يقول القرآن المجيد: " وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا". (النساء: ٩٣).

كان الجفاة الغلاظ، يستخفون قبل الإسلام بالروح الإنسانية، حتى فى بنيهم وفلذات أكبادهم، يئدون البنات كراهةً لإنجابهن أو مخافة لحاق العار بهم، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق والفاقة ونضوب القدرة على إعاشتهم والإنفاق عليهم.. إلى هؤلاء نزل القرآن الحكيم مقدساً للروح الإنسانية، آمراً باحترامها.. يقول للوائدين منذراً ومحذراً ومرهباً.." وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ". (التكوير: ٨، ٩). هذا البيان القرآني إنما يرد على سبيل التبكيت والتقريع للوائدين.. لافتا منبها إلى أن الموءودة لم ترتكب بداهة ما يبيح أو يبرر قتلها ؟!.. هؤلاء ضعاف العقول والأفهام الذين فيهم قال القرآن:" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ" (النحل: ٥٨، ٥٩).. ويقول القرآن لفاقدى الثقة والإيمان، القاتلين لأولادهم خشية الفقر والإملاق.. " وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا" (الإسراء: ٣١) (الأنعام: ١٥١).. الخوف من الفاقة هو ضعف فى

الإيمان.. المؤمن الحق يعلم أن الله تعالى هو الرزاق.. ما من مخلوق إلاّ ويوافيه سبحانه برزقه، حتى الدواب.. " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا " (هود: ٦).. لا تنتهى الآية الكريمة فى نهيها عن هذه الجريمة الكبرى التى نهت عنها، دون أن تقول إن ما مضى من هؤلاء الجفاة الذين استحلوا قتل أولادهم إنما كان خطأ كبيراً !!

من هذا الحرص الحريص على الروح الإنسانية وعلى الحياة، ما روى عن رسول القرآن.. كان صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار ".. فقيل هذا القاتل، فما بال المقتول ؟ قال صلى الله عليه وسلم: " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ".. بل إن الإسلام فى حرصه على الروح وعلى الحياة الإنسانية نهى عن الانتحار، وعده قتلاً لنفسٍ حَرم الله تعالى قتلها.. حتى على صاحبها.. وفى حديث رسول القرآن: " من قتل نفسه بحديدة، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه، فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا.. ومن قتل نفسه بسم، فسمّه فى يده، يتحساه فى نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبدا.. ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ فى نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبدا ".. وروى الشيخان عن جندب البجلى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " كان من قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكيناً فحَزَّ بها يده فما رقأ الدم (أى لم يتوقف عن النزف) حتى مات، قال الله تعالى:

" بادرنى عبدى بنفسه حرّمت عليه الجنة "..

الأسير، مع أنه قد يكون مقاتلاً آذى وقَتل، إلاّ أن روحه مصونة، بل هو مرعى محفوظ الحق والكرامة، وإطعامه واجب على آسره.. ففى القرآن المجيد:.." وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان: ٨)، والمنّ عليه بإطلاقه من الأسر سابق على الفداء.. "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ".. (محمد: ٤).. الإسلام الذى يحترم روح الأسير ولا يمسها، يحترم أيضاً روح المعاهد الذى هو أصلاً من أهل دار الحرب الذين

شنوا الحرب وقاتلوا وقَتَلوا.. روى عن عبد الله بن عمر، عن رسول القرآن صلى الله عليه وسلم قال: " ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ".. وعنه عليه الصلاة والسلام أيضاً: " ألا من قتل نفساً معاهدة، لها ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر ذمة الله، ولا يرح رائحة الجنة "..

تقرير مبدأ شخصية المسئولية فى الإسلام، يصب فى النهاية فى صالح الروح الإنسانية وعدم جواز المساس بها ووجوب احترامها والنأى بها عن أى عقاب إلاّ لوزر شخصى ثبت فى حقها ثبوتاً مؤكداً معدوداً يستوجب عقابها حقاً وعدلاً.. بغير ذلك فإن الروح مصونة لا تُمس.. فى شرعة الإسلام أن المسئولية شخصية.. لا يسأل الشخص إلاّ عما فعل، لا محل لمساءلته شرعاً عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه.. المسئولية فى شريعة الله شخصية.. فى القرآن الحكيم: " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ " (الإسراء: ١٣)، " كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ". (الطور: ٢١).. وفيه أيضاً: " ولا تزر وازرة وزر أخرى ". (الأنعام: ١٦٤، فاطر: ١٨).. " أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى". (النجم: ٣٨، ٣٩).. " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ". (الزلزلة: ٧، ٨).. - فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلاّ بمن ارتكب الجرم وثبت فى حقه ثبوتاً يقره الشرع والقانون، بغير ذلك تكون المساءلة ظلماً، " وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ". (غافر: ٣١).

أينما يطوف المسلم، وغير المسلم - فى رياض الإسلام، يجد دوحة أظلت الروح الإنسانية بكل رعاية وأقامت سياجاً عالياً لحفظها.. الدين الذى يقدم هذا كله، حرصاً على الروح الإنسانية، وحماية ووقاية لها، ليس دين عنف ولا دين سيف ولا خنجر ولا مدفع ولا قنبلة.. آخر ما يمكن أن يتهم به الإسلام أن يقال إنه يبيح الاستهانة بالأرواح.. إن الدين الحنيف الذى يقيم هذه الترسانة الحكيمة لوقاية الروح الإنسانية واحترامها وحمايتها والحفاظ عليها - لا يستهين ولا يمكن أن يستهين بها.. هذا ادعاء باطل أظهر ما فيه بطلاناً تعمده خلط الدفاع

الشرعى بالاعتداء المؤثم.. الدفاع عن النفس والعرض والمال مباح فى كل شرائع السماء وقوانين الناس، ولكن يبقى للإسلام أنه قدس الروح الإنسانية تقديساً لا مثيل له فى أى دين من الأديان أو شريعة من الشرائع.. هذا الدين الجامع الذى أنزله الله تعالى رسالة للعالمين.

• • •

لقد رأينا فيما تقدم نقلا عن البحوث القيمة التى قدمت فى مؤتمر الأمن المجتمعى فى الإسلام، أن الأمان غاية إسلامية وضع لها الإسلام المبادئ والأحكام والقواعد، وأحاطها بمظلة شاملة تكفل تحقيق " نعمة الأمان " التى جاءت فى مقدمة الإنعامات الإلهية، فهى نعمة النعم، وليدة لعدل، ودستورها العقل والصلاح والاستقامة والبناء والبرّ والصدق والتراحم والاطمئنان والتسامح والمساواة والوسطية واحترام وتقديس الروح الإنسانية.. هذه النعمة -" نعمة الأمان " - نراها حاضرة جلية من بين النعم الجزيلة التى أنعم الله عزّ وجل بهـــا على المؤمنين الصادقين، فيقول عزّ من قائل فى كتابه العزيز:" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِـــي شَيْئًا وَمَـــن كَفَـــرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُـــمُ الْفَاسِقُونَ" (النور: ٥٥).

كتب وإصدارات أ. رجائى عطيه

(١) **أوراق** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧.

(٢) **من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧.

(٣) **من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨.

(٤) **بشاير** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.

(٥) **باسمك اللهم** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.

(٦) **بسم الله** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.

(٧) **نواب القروض** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.

(٨) **يارب** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.

(٩) **قضية النقابيين** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.

(١٠) **أبو ذر الغفارى** - روز اليوسف، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢، ٢٠٠٥.

(١١) **قضية الجمارك الكبرى** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢.

(١٢) **مواقف ومشاهد إسلامية** - دار الهلال - ط ٢٠٠٢.

(١٣) **ماذا أقول لكم** - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣.

(١٤) **عالمية الإسلام** - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١، ط ٢ - ٢٠٠٣.

(١٥) **إبحار فى هموم الوطن والحياة** - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.

(١٦) **الإنسان العاقل وزاده الخيال** - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.

(١٧) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣.

(١٨) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الثانى - روز اليوسف - ط٢٠٠٣.

(١٩) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الثالث - روز اليوسف - ط٢٠٠٤.

(٢٠) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الرابع - روز اليوسف- ط٢٠٠٥.

(٢١) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦.

(٢٢) **الإنسان والكون والحياة** - كتاب الهلال - أكتوبر ٢٠٠٥.

(٢٣) **تأملات غائرة** - دار الشروق - ط ٢٠٠٦.

(٢٤) **الأديان والزمن والناس** - كتاب الهلال - سبتمبر ٢٠٠٦

(٢٥) **شجون وطنية** - المكتب المصرى الحديث - ٢٠٠٦.

(٢٦) **الهجرة إلى الوطن** - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٧.

(٢٧) **رسالة المحاماة** - دار الشروق - سبتمبر ٢٠٠٨.

(٢٨) **فى الوحدة والجماعة الوطنية** - المكتب المصرى الحديث - سبتمبر٢٠٠٨

(٢٩) **فى رياض الفكر** - كتاب الهلال ٢٠٠٨.

(٣٠) **بين شجون الوطن وعطر الأحباب** - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.

(٣١) **من تراب الطريق** - الكتاب الأول ــ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.

(٣٢) **من حصاد المحاماة** - المجلد الأول ــ المكتب المصرى الحديث.

(٣٣) **من حصاد المحاماة** - المجلد الثانى ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٤) من حصاد المحاماة ــ المجلد الثالث ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٥) من حصاد المحاماة ــ المجلد الرابع ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٦) من حصاد المحاماة ــ المجلد الخامس ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٧) من حصاد المحاماة ــ المجلد السادس ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٨) من حصاد المحاماة ــ المجلد السابع ــ المكتب المصرى الحديث

(٣٩) من حصاد المحاماة ــ المجلد الثامن ــ المكتب المصرى الحديث

(٤٠) من حصاد المحاماة ــ المجلد التاسع ــ المكتب المصرى الحديث

(٤١) دولـــــة الأيـــــام ! ــ كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩

(٤٢) من تراب الطريق ــ الكتاب الثانى ــ المكتب المصرى الحديث

(٤٣) الأمن والايمان في الاسلام – قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام ــ المكتب المصرى الحديث

(٤٤) **عبقرية إنكار الذات** - أبو عبيدة بن الجراح - تحت الطبع.

الفهـــرس

١	**تقديـم**	٣
٢	قراءة فى ملف مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام	٥
٣	**المحور الأول** ـ المقوم الإيمانى فى تحقيق الأمن المجتمعى	١٠
٤	الأبعاد الروحية والمادية للأمن المجتمعى فى الإسلام	١٥
٥	المقوم الإيمانى والتعدديات الدينية والمذهبية والقومية والعرفية	٢٧
٦	**المحور الثانى** ـ العدل الاجتماعى فى الإسلام	٣٣
٧	واجب احقاق الحق والعدل	٣٨
٨	دور الوقف فى تحقيق الأمن المجتمعى	٤٢
٩	العدالة التوزيعية والتعويضية والعدالة الاجتماعية	٤٧
١٠	**المحور الثالث** ـ الحقوق الاجتماعية	٥٣
١١	حقوق الإنسان	٦٠
١٢	الحقوق الاجتماعية	٦٥
١٣	**المحور الرابع** ـ دور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى	٧٠
١٤	دور المنظمات الإسلامية	٨٠
١٥	دور المسجد فى تحقيق الأمن المجتمعى	٨٦
١٦	**الوسطية** فى الإسلام ودورها فى كفالة الأمن المجتمعى	٩٢
١٧	عناية الاسلام **بضبط السلوك الانساني**	٩٦
١٨	**المساواة** والأمن المجتمعى فى الإسلام	١٠٠
١٩	شجرة الحقوق والمساواة فى الإسلام	١٠٦
٢٠	**قدسية الروح** والأمن المجتمعى فى الإسلام	١١١
٢١	كتب وإصدارات للمؤلف	١٢٣

رقـــم الايـــداع
١٦٤١١ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 209 -190 - 9